

مركز الدراسات الشرقية
جامعة القاهرة

حرب أكتوبر
وأزمة المخابرات الإسرائيلية

الجزء الأول

تأليف

تسفى لانير

ترجمة

أ.د. محمد محمود أبو غدير

سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية
العدد (٢٠) ٢٠٠٢

حرب أكتوبر
وأزمة المخابرات الإسرائيلية
الجزء الأول

تأليف

تسفى لانير

ترجمة

أ.د. محمد محمود أبو غدير

سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية

يصدرها مركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة

تحت إشراف أ.د. محمد خليفة حسن

تصدر هذه السلسلة تحت رعاية

أ.د نجيب الهلالي جوهر

رئيس جامعة القاهرة

ورئيس مجلس إدارة المركز

و

أ.د أحمد فؤاد الباشا

نائب رئيس الجامعة

ونائب رئيس مجلس إدارة المركز

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٢٠٠٣
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977-223-576-5

مطبعة العمرانية للأوفست

الجيزة ت: ٥٨١٧٥٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

القارىء الكريم

بمناسبة احتفالات مصر بالانتصار العظيم فى حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ يسر مركز الدراسات الشرقية أن يقدم للقارىء الكريم هذه الترجمة العربية لكتاب مهم عن حرب أكتوبر صدر باللغة العبرية وأثار ضجة كبيرة فى المجتمع الإسرائيلى أدت فى النهاية إلى اختفاء الكتاب والتعتيم الشديد عليه وتجاهله تماماً فى الكتابات العسكرية والاستراتيجية والسياسية الإسرائيلية التى تتناول حرب أكتوبر بالتحليل والدراسة والنقد .

وقد لاحظ مؤلف الكتاب أن التفسيرات الإسرائيلية التى أعطيت لتبرير هزيمة الجيش الإسرائيلى فى حرب ١٩٧٣م تفسيرات ضعيفة لا تتناسب أبداً مع هذا الحدث الهائل فى تاريخ العسكرية الإسرائيلية ، ولم تفد فى الكشف عن جوانب التقصير التنظيمية والمخابراتية من جانب الجيش الإسرائيلى ، ولا فى تحليل عنصر المفاجأة وكيفية حدوثها . ويحاول المؤلف أن يربط الهزيمة والمفاجأة بأحداث وتطورات عميقة حدثت للمجتمع وللجيش الإسرائيلى على المستويات السياسية

والأيديولوجية والأخلاقية . وقد حدد المؤلف هدفه فـــى إعــادة اختبار المسلمات التى أحاطت بالمفاجأة التى وقعت فى الحـــرب ومحاولة فهم ظاهرة المفاجأة الاســـتراتيجية وأســباب وقوعــها وفشل أجهزة المخابرات الرسمية فى كشفها . وقد عمق المؤلــف دراسته من خلال إضفاء التحليلات النفسية والفلسفية باعتبــار أن الفشل الذى حدث يتصل بالمعرفـــة والفــهم للبيئـــة السياســية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة باسرائيل والمحيطة بها أيضاً. وقد اعتمد المؤلف أيضاً على نظريــــات الاتصـــال والعلاقــات الدولية والاستراتيجية ، وعلى منـــــاهج التحليــل فـــى العلــوم الاجتماعية .

ويتكون الكتاب من ثلاثة فصول يتحدث المؤلف فى الفصـــل الأول عن المفاجأة والإنذار المبكر وهل المفاجـــأة فـــى حـــرب أكتوبر كانت نتيجة لفشل فى الإنذار المبكـــر ؟ وأن المخـــابرات العسكرية الإسرائيلية فشلت لأنها لم تقدم الإنذار المبكر المطلوب وبالتالى فهى مسئولة مسئولية مباشرة عن الانتصار المصـــــرى السورى فى الحرب . فالانذار المبكر يسمح بالتعبئـــة المنظمـــة لقوات الاحتياط كأســـاس راســخ فـــى خطــط دفـــاع الجيــش الإسرائيلى. وقد سقط هذا الأســـــاس وبالتـــالى فشــل الجيــش

الإسرائيلى فى تنفيذ خططه الحربية ، وبخاصة لأنه يعتمد اعتماداً أساسياً على وحدات الاحتياط وانتشارها ، واستدعاء الاحتياط يعتمد على الإنذار المبكر الذى لم يتم .

وفى الفصل الثانى يناقش المؤلف الفارق بين المفاجآت الآنية والمفاجآت الأساسية ، وأن صدمة يوم الغفران تتركز فى اكتشاف المجتمع الإسرائيلى للصور الذاتية الخاطئة عن أنفسهم وعن قدراتهم العسكرية والاجتماعية ، وعن قدراتهم المعنوية . ويمكن تفسير هذه الصدمة بأن هذه الصورة الذاتية عن طبيعة الحرب وطبيعة القدرات الإسرائيلية تبددت خلال أربع وعشرين ساعة من بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣م .

وفى الفصل الثالث يقدم المؤلف تحليلاً عميقاً للدروس المستفادة من حرب أكتوبر ١٩٧٣م. ومن أهم هذه الدروس من وجهة نظر المؤلف أن حرب أكتوبر كشفت التناقض الجوهرى القائم بين التطور العظيم للفكر السياسى والعسكرى المصرى والسورى وجمود الفكر السياسى والأمنى الإسرائيلى .

وفى النهاية يسرنى أن أقدم الشكر الجزيل للأستاذ الدكتور محمد محمود أبو غدير رئيس قسم اللغة العبرية بكلية الدراسات الإنسانية للبنات بجامعة الأزهر على مجهوده الكبير فى ترجمة

هذا الكتاب المهم ، وعلى مجهوده العام الذى يبذله فـــى مجـــال الدراسات الإسرائيلية بمركز الدراسات الشرقية بجامعة القـاهرة. وهو مجهود كبير يصب فى النهاية فى خدمة الأهداف القوميـــة ويساعد على فهم طبيعة المجتمع الإسرائيلى .

ويهدى مركز الدراسات الشرقية هذا الكتاب إلـــى القـوات المسلحة المصرية فهو بمثابة شهادة إسرائيلية على تطور الفكـــر العسكرى المصرى ، وعلى القدرات الكبيرة التى تملكها قواتنـــا المسلحة على المستويات القتالية والمعنوية .

ونتمنى لمصرنا العزيزة ولعالمنا العربى الكبير كـــل التقـدم والازدهار والمزيد من الانتصارات .

أ.د. محمد خليفة حسن

مدير مركز الدراسات الشرقية

جامعة القاهرة

تقديم المترجم

هناك عدة أسباب دفعتني إلى ترجمة هذا الكتاب المهم من العبرية إلى العربية ومن أهم هذه الأسباب :

أولاً : أن موضوعه وهو مفاجأة حرب ١٩٧٣م العظيمة والهزيمة التي لحقت لأول مرة بالعسكرية الإسرائيلية على أيدي الجيشين المصري والسوري لم تكتمل دراستهما على اختلاف جوانبهما، وما زال المجهول منها أكثر مما كشفت عنه الوثائق بما في ذلك الوثائق العسكرية الخاصة بالجيش الإسرائيلي. فلا تزال السرية المطلقة مفروضة على أسرار تلك الحرب وبخاصة ما يتصل منها بجوانب التقصير والفشل الإسرائيليين مكتفين بتقديم كبش فداء في صورة رئيس الأركان الإسرائيلي في ذلك الحين وتبرئة ساحة الزعامة السياسية حتى لا تتطور الأمور إلى ما لا يحمد عقباه والتي قد تصل كما ذكرت مصادر إسرائيلية، إلى اندلاع حرب أهلية داخل إسرائيل. وفي هذا الكتاب، الجديد من المعلومات عن دور الزعامة السياسية في الفشل الذي مُنيت به إسرائيل

وجيشها وانتصار الفكر السياسي والعسكري العربي. ويتضمن الكتاب المزيد من التفاصيل عن ردود فعل هزيمة إسرائيل في حرب أكتوبر المجيدة على مستوى الجيش الإسرائيلي والمؤسسات العسكرية وأجهزة المخابرات المختلفة وكذلك على مستوى القيادة السياسية.

ثانيًا : إن مؤلف الكتاب هو واحد من المفكرين الكبار في مجال الدراسات الاستراتيجية في إسرائيل وله العديد من الدراسات والكتب في هذا المجال، وتخلو دراسة تصدر في إسرائيل في هذا المجال دون الرجوع إلى مؤلفات " تسيفي لانير ". وقد لاحظت تجاهلاً تامًا من جميع المفكرين الإسرائيليين الدارسين للعلوم الاستراتيجية والعسكرية لهذا الكتاب رغم اتصاله مباشرة بموضوعات دراساتهم مما يؤكد وجود حالة مقصودة للتعتيم على هذا الكتاب الذي اختفى من الأسواق الإسرائيلية رغم ظهور بعض الكتب ذات الطابع الاستراتيجي العسكري التي صدرت في إسرائيل في أعقاب صدور هذا الكتاب ولكنها لا تشير إليه على الإطلاق رغم إشارتها إلى كتب أخرى صدرت لنفس المؤلف.

ومن هذه الكتب على سبيل المثال :

١- " موقف إسرائيل من النزاع الإسرائيلي العربـــي " بقلم يهوشفاط هاركابي والصادر بالعبرية في عـــام ١٩٨٧.

٢- " خطوط حمراء في استراتيجية الردع الإسرائيلي " بقلم ميخا - بار والصادر في عام ١٩٩٠.

٣- " رقصة الرعب : الانتفاضة حرب الخليج ومسيرة السلام " بقلم ميرون بنبشتى والصـــادر فـــي عـــام ١٩٩٢.

٤- " المجتمع الإسرائيلي - توترات وصراعات " بقلـــم أفيفا أفيف والصادر في عام ١٩٩٣م.

٥- " السياسة والاستراتيجية الإسرائيلية " بقلـــم أفنـــير يانيف والصادر في عام ١٩٩٤.

٦- " القضية النووية ومسيرة السلام " بقلم أفنير كوهين والصادر في عام ١٩٩٥.

٧- " إسرائيل مع اقتراب عام ٢٠٠٠ " : " المجتمع - السياسة والثقافة " بإشراف موشيه ليسك وباروخ كاني - باتز والصادر في عام ١٩٩٦. وغيرها من الكتب الأخرى في هذا المجال.

ثالثًا : إن هذا الكتاب يختلف عن كتب أخرى صدرت في إسرائيل عن حرب أكتوبر وتتسم أغلبها، كما ذكر لانير ذاته، بالسطحية في تناولها لجوانب التقصير والفشل التي حدثت في حرب أكتوبر من الجانب الإسرائيلي، وبالبعد عن الموضوعية في تحديد أسباب هزيمة إسرائيل، حيث تناولت قشور القضية فقط والظواهر السطحية لها ولم تتناول صلب المفاجأة والأسباب العميقة لها حتى لا تعترف بانتصار الفكر السياسي والعسكري العربي على الفكر الإسرائيلي. ولا يقتصر الكتاب الذي نقدمه للقارئ الكريم على كشف جوانب وأسباب التقصير العسكري والمخابراتي الإسرائيلي فقط بل يعرض لمجالات واسعة أخرى داخل إسرائيل مثل المجالات السياسية والأيديولوجية والأخلاقية والتي تأثرت بالهزيمة التي

لحقت بإسرائيل في حرب ١٩٧٣. وقارن الكتاب بين المفاجأة الاستراتيجية التي تعرضت لها إسرائيل بمفاجآت أخرى حدثت في أماكن أخرى في العالم بما في ذلك بعض الدول العظمى، مُلقيًا الضوء على المغازي والأبعاد العالمية لظاهرة المفاجأة العسكرية والاستراتيجية.

رابعًا : إن هذا الكتاب وبخاصة الجزء الثاني منه الذي سيصدر قريبًا بإذن الله، يقدم العديد من المعلومات الجديدة عن أزمة المخابرات الرسمية في إسرائيل وفي العالم على ضوء ما حدث في حرب أكتوبر ١٩٧٣ مع توسيع دائرة التناول لتشمل الدلالات الإنسانية والبيئية المحيطة بالمؤسسات العسكرية والسياسية من الخارج والتي تلعب دورًا في حدوث التقصير والفشل مع التركيز على المخابرات الإسرائيلية المختلفة.

ولما كان هذا الكتاب هو في أساسه دراسة عن المخابرات الرسمية حين تواجه أزمة، فإنه يركز على أبرز جوانب عملها وهو ما يتصل " بالمعرفة والفهم ".

ورغم أهمية المعلومات الواردة في هذا الكتاب والتي وصلت في بعض الأحيان إلى حد " الجلد الذاتي " للنفس من أجل التكفير عن الأخطاء التي وقعت فيها إسرائيل في حرب ١٩٧٣، فإن على القارئ الكريم أن لا يتوقع أن درجة الموضوعية والشجاعة في إبداء الرأي ستصل إلى حد الاعتراف الكامل بالهزيمة في ١٩٧٣. فالكاتب يحاول هنا وهناك، التخفيف من ثقل الهزيمة مع التهوين بقدر الإمكان من حجم الانتصار العربي الاستراتيجي والعسكري في أكتوبر ١٩٧٣. ورغم ذلك سيشعر القارئ الكريم خلال قراءة هذا الكتاب بالفخر والاعتزاز بالنفس للإنجازات العظيمة التي حققتها قياداته السياسية والعسكرية في أكتوبر، رغم محاولات المؤلف التهوين منها كما ذكرت. ولا يجب أن ننسى أن مؤلف الكتاب هو شخصية إسرائيلية لها مكانتها وهو لا يفعل ذلك نيابة عن العرب أو لخدمة قضاياهم بل يريد أن ينتقد المتسبب الحقيقي عن التقصير الذي حدث في ١٩٧٣ من أجل منع تكراره في المستقبل، وإن كان يؤكد استحالة تحقيق ذلك. فالمفاجأة أمر وارد في كل زمان ومكان رغم كل الإجراءات التي تُتخذ لمنع حدوثها.

ولأسباب فنية خالصة وجد الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن مدير مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة إصدار هذا الكتاب في قسمين منفصلين حيث أن القسم الأول منه والذي هو في أيدي القارئ الكريم يهم شريحة واسعة من الدارسين ورجال الإعلام المهتمين بالدراسات الاستراتيجية ويهم القارئ العادي أيضًا. أما القسم الثاني والذي سيصدر قريبًا بإذن الله فهو دراسة فنية خالصة لبنية المخابرات الإسرائيلية وتأثير المفاجأة التي حدثت في أكتوبر على المؤسسة العسكرية الإسرائيلية بصورة عامة وعلى أجهزة المخابرات بصورة خاصة والدروس المستفادة المستقبلية من هذه الهزيمة.

والكتاب بقسميه هو شهادة تقدير واعتراف دفين بالنجاح الذي حققته العسكرية العربية في ١٩٧٣ رغم محاولات التخفيف من الصدمة التي لحقت بإسرائيل وبالإسرائيليين وبمؤسساتها السياسية والعسكرية.

وفي النهاية أقدم شكري للأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن للجهد الذي بذله إصدار هذا الكتاب ليضاف إلى قائمة طويلة من الإصدارات التي صدرت تحت إشرافه في مجالات

الدراسات الشرقية بجميع جوانبها الفكرية، الأدبيــة، التاريخيــة، الدينية وكذلك العسكرية الاستراتيجية. والشكر الجزيل للجـــهاز الإداري في المركز الذي يقدم كل عون لكل باحث جاد، بحـــب كامل ومودة وتفان وإخلاص. كما أقدم الشـــكر لكــل صديــق وزميل ومثقف تابع ما أكتب وأمدني بـــالنقد المفيـــد والتوجيـــه السديد وبخاصة بعد صدور كتابي الأخير عن الصراع الدينـــي العلماني داخل الجيش الإسرائيلي. إلى كــل هــؤلاء الأصدقــاء المخلصين في مؤسسات الدولة المختلفة الذين يعملون في صمت وجهد دائمين وإلى مصرنا الحبيبة وقيادتنا السياســـية الرشـــيدة وإلى جيشنا الباسل وشعبنا الأبي أقدم هذا الكتاب كجهد متواضـــع سيزداد حجمًا في نظري مع كل نقد وتوجيه أتلقاه لكـــي أســـتفيد منه في دراسات قادمة بإذن الله.

د. محمد محمود أبو غدير

القاهرة أكتوبر ٢٠٠١م

مدخل عام بقلم المؤلف ...

تعود بداية هذا الكتاب إلى شعوري بالمفاجأة المدوية والتي شعر بها أيضًا أناس كثيرون مثلي في ساعات ما بعد ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، وبصورة أوضح غداة نفس اليوم، عندما بدأت ترتسم، من الأنباء غير الكاملة التي وصلت من ميادين القتال، صورة مذهلة عن المكاسب التي حققها الجيشان المصري والسوري. وتوالت علينا خلال الحرب وبعدها تفسيرات عن أسباب حدوث مفاجأة حرب يوم الغفران من وجهات نظر ومواقف مختلفة. وكانت هذه التفسيرات تصدر عن خبراء عسكريين - وبخاصة فيما يتصل بما أطلق عليه في ذلك الوقت - حرب الجنرالات - وعن رجال سياسة - في خضم النضال الشعبي الذي قامت به حركات الاحتجاج - وعن رجال قانون - خلال المداولات التي جرت داخل لجنة أجرانات وما توصلت إليه من استنتاجات.

لقد جاءت هذه التفسيرات وكذلك الموجة التالية من الكتب والمقالات التي كتبها عدد من " أبطال القصة " سواء بصورة تعبر عن مواقفهم أو من أجل الإشارة إلى دورهم فيها، جاءت مخيبة في ضحالتها رغم الكثير من المعلومات التي كشفوا عنها.

لقد أدت جوانب التقصير التنظيمية من جانب جيش الدفاع وأجهزة المخابرات المختلفة إلى نشوء مفاجئة حرب يوم الغفران ولكن كيف تسببوا فيها ؟. يبرز ضعف تلك التفسيرات في أنها تتناول فقط قشور المفاجأة والأسباب الفورية السطحية لها ولا تتناول صلب المفاجأة والأسباب العميقة التي يجب البحث عنها، ليس خلال أيام معدودات أو ساعات جاءت قريبة من وقوع الحدث، بل يجب البحث عنها في الأحداث والتطورات التي وقعت قبل ذلك بأشهر أو ربما أعوام. ولا يشمل ذلك المجال العسكري والمخابراتي فقط بل يجب أن يشمل مجالات واسعة داخل المجتمع، سياسية، أيديولوجية، وربما أخلاقية أيضًا وليس فقط في مجال الفشل في إصدار إنذار مبكر يحذر من الخطوات التي يعتزم العدو القيام بها بل تشمل أساسًا مجالات عدم التنسيق بين الأنماط الاجتماعية والسياسية التي وضعناها عن أنفسنا وعن المنطقة المحيطة بنا وبين الواقع القائم.

وقد قضيت أشهرًا أتابع فيها الدراسات الأكاديمية التي كتبت عن مفاجآت استراتيجية أخرى وقعت في عصرنا أملاً في أن أعثر من خلالها على التفسير المطلوب لما حدث. وعندما تبين لي أن هذه الدراسات لا تقدم التفسير المناسب، لتفهم مفاجئة حرب يوم الغفران أصبحت أسيرًا لسحر الدراسات التي تناولت

المفاجآت الاستراتيجية وأسبابها وملامحها، وهل يمكن تحاشي وقوعها وكيف ؟.

وبعد دراسات استمرت تسع سنوات متصلة لا زلت أشعر أن هذه القضية لم تصل إلى نهايتها. وهذا الكتاب هو إشارة ضوئية هامة في رحلة طويلة تسعى إلى فهم الظاهرة ولكنها لا تعتبر شاطئ النجاة. ومن الأسباب الرئيسية التي دفعتني إلى إشراكك، أيها القارئ، في أفكاري واستنتاجاتي التي توصلت إليها حتى الآن، أنه كلما مرت الأعوام ولا تبذل محاولات للتصدي للتفسيرات القليلة الملازمة لهذا الحدث المفاجئ كلما تعاظم الخطر من أن قضية المفاجأة التي حدثت في حرب يوم الغفران ستتحول إلى أسطورة أخرى ضمن منظومة الأساطير القومية الخاصة بنا، وهذه الأسطورة يمكن ألا تكون خاطئة فقط بل وخطيرة أيضًا.

الهدف الرئيسي لهذا الكتاب هو إذن، إعادة اختبار المسلمات التي تحيط بالمفاجأة التي وقعت خلال حرب يوم الغفران. وسأركز في الجزء الأول الذي ينقسم إلى جزأين على " حرب يوم الغفران – المفاجأة وحالة الهلع ".

والقارئ الذي يحاول أن يبحث في هذا الجزء عن تفاصيل لم تنشر بعد عما حدث قبل السادس من أكتوبر أو بالقرب منه

قد يصاب بخيبة أمل. فالكتاب لم يسع منذ البداية إلى البحث عن تفاصيل جديدة بل هو في أساسه محاولة لتقديم دلالات جديدة لمعلومات قائمة. وإذا جاءت في الكتاب معلومات جديدة فالسبب في ذلك يعود إلى أن الذين سبقوني في دراسة مفاجأة حرب يوم الغفران اهتموا بتدبيج دراساتهم بتفاصيل أخرى.

والسبب الذي دفعني إلى كتابة هذا الكتاب هو محاولة فهم ظاهرة مميزة وهي - مفاجأة حرب يوم الغفران - ولكن وجدت نفسي، على نحو ما يحدث بين الحين والآخر في مثل هذه الحالات، مشغولاً أكثر وأكثر، وبصورة معهودة، بالمغازي والأبعاد العالمية لظاهرة "المفاجأة". فمفاجأة حرب يوم الغفران ذات سمات إسرائيلية ومميزة، ولكنها تعتبر شيئاً عاديًا كحدث يتصل بمفاجأة استراتيجية وقعت. ومن هذه الناحية، يمكن اعتبارها حلقة أخرى في سلسلة من المفاجآت وجوانب الفشل في تقدير الموقف والتي تُمنى بها أجهزة مخابرات مختلفة في العالم بما في ذلك الأجهزة المتطورة والفعّالة.

وسأحاول في الجزء الثاني الذي يحمل عنوان " أزمة المخابرات الرسمية " واستناداً على الاستنتاجات التي خرجت بها بشأن ملامح وسمات مفاجأة حرب يوم الغفران، أن أجيب

على السؤال القائل : لماذا تفشل أجهزة المخابرات الرسمية، بين الحين والآخر في منع وقوع المفاجآت ؟.

وسأحاول في هذه المرحلة المبكرة، أن أمنع القارئ من تكوين انطباع غير صحيح بأن هذا الكتاب هو كتاب عن المخابرات بل هو كتاب يتناول أساسًا مشكلة الدلالات الإنسانية والبيئة والمحيطة بها. وليست المفاجأة والفشل في تقدير الموقف من الأشياء المميزة فقط للدراسات المخابراتية، بل هي منتشرة وبصورة واسعة في مجالات عديدة من مجالات علوم المجتمع والسلوكيات. كما أن المخابرات الرسمية تواجه مشاكل ونقاط ضعف نابعة من المحاولة - غير الناجحة حتى الآن - لفهم البيئة السياسية، والاجتماعية والاقتصادية الخاصة بنا والتحديات التي تشكلها عمليات التنبؤ بما سيحدث في تلك البيئة والتخطيط لذلك. ولكن مجال عمل المخابرات هو مجال مميز وهذا هو مصدر جاذبيته الرئيسية في نظري. كما أن ضخامة التحدي والمصاعب الملموسة تبرز في هذا المجال بصورة تفوق أي مجال عمل آخر. وأحيانًا لا يمكن إنكار الفشل في تقديرات الموقف.

وليس في هذا الكتاب أي إدعاء بالكمال أو بالتمثيل الواسع لكل مجال من المجالات التي يتصدى لها. وليس في هذا الكتاب

– باعتباره دراسة في المفاجأة التي حدثـــت فـــي حـــرب يـــوم الغفران – وصفًا كاملاً ومترابط للأحداث. والكتـــاب باعتبـــاره دراسة عن المخابرات الرسمية، يتناول فقط أحد مجالات عملـــها – وربما هو أهم المجالات – وهو ما يتصل بالمعرفة والفـــهم. وعندما يتناول الكتاب المغازي الاجتماعيـــة الواســـعة لظـــاهرة المفاجأة الاستراتيجية وقيود الفهم البشري، فإنه يفتح نافذة ضيقـــة للغاية بالمقارنة لمجالات أخرى.

ومع ذلك، لو وجد القارئ في هذه الدراسة حساسية تبعـــث على الارتياح في الوقوف على المفـــاهيم الخاصـــة بمجـــالات متنوعة مثل المجال النفسي والفلسفي للمعرفة (ابيســـتمولوجيا) وكذلك نظرية الاتصالات والعلوم الاجتماعية ونظرية العلاقـــات الدولية والاستراتيجية، فإنني مدين في ذلك للبروفيســـور يـــهو شفاط هار كابي في قسم العلاقات الدوليـــة بالجامعـــة العبريـــة بالقدس والبروفيسور دانئيل كهنمان الذي كان يعمل في قسم علـــم النفس بنفس الجامعة والبروفيسور آسا كشير من قســـم الفلســـفة والبروفيسور دافيد فايتل من قسم علوم المجتمع (وكلاهما مـــن جامعة تل أبيب) وللسيد " هوير " المدير السابق لقسم " الطـــرق الكمية والتنبؤ المستقبلي " في وكالة المخابرات المركزيـــة C.B.M والطاقم الذي يعمل معه وللدكتور باروخ فيشهوف مـــن معـــهد

بحوث اتخاذ القرارات في نفس الوكالة وللواء احتياط أهرون ياريف رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب وزوجته راحيل لانير. لقد وجدت لدى هؤلاء الأصدقاء ملاحظات لا تقدر بثمن بشأن الإفتراضات الأولية التي خرجت بها في بداية الطريق وكانوا مستمعين مخلصين وأحياناً غمروني بالتشجيع المتواصل.

والشكر والتقدير لزملائي في مركز الدراسات الاستراتيجية بجامعة تل أبيب للجو الودي الذي ساعد على الانتهاء من هذا الكتاب وبخاصة الإمكانيات التي أتاحوها لي لكي توضع الاستنتاجات التي توصلت إليها أمام الاختبار من جانب ذوي العلم والخبرة الأصيلة. وأشكر المجلس القومي للبحوث والتنمية للإسهامات المادية التي قدمها والتي ساعدتني على كتابة النسخة الأولى المبكرة والتي استند عليها هذا الكتاب. والشكر الخاص لكل من : دوريت راينيس، تمار زنيفى، عليزا فالخ، يوسف البير، دورن بل، وللطاقم الفني في مركز الدراسات الاستراتيجية للمساعدات التي قدموها خلال المراحل المختلفة لإعداد الكتاب ودفعه إلى المطبعة.

وفي النهاية وقبل أن انتهي من هذا التقديم أريد أن أقول بأنه رغم مرور كل هذه السنوات على حرب يوم الغفران، إلا

أن هذا الحدث لا يعتبر قد أكمل واستكمل سواء في نظـــري أو في نظر غالبية الإسرائيليين. والسنوات التي انقضت لم تخفــف من مشاعر الألم والحساسية التي ألمت بـــالكثيرين منـــا بسـبب صدمة يوم الغفران. ومن أجل هذا الســـبب بـــالذات تعـــاظمت مخاوفي من أنني قد ألحق الأذى غير المقصود ببعض الأصدقاء العديدين وبخاصة بجيش الدفاع وبأجهزة المخـــابرات، والذيـــن ساعدوني كثيرًا في جمع المعلومات الواردة في الكتاب والتـــأكد من صحتها ومن أجل ذلك، ولمنع أي ريبة، أريد أن أؤكد بـــأنني لا اعتبر الجزء الأول من الكتاب، محاولة للتوصل إلـــى تقييـــم وتلخيص تاريخي لمفاجأة حرب يوم الغفران أو للحرب ذاتها.

وإذا اختلف البعض حول دقة هذه المعلومة أو تلك فـــآمل أن يرجعوا ذلك إلى خطأ في البحث والدراسة وليس إلى ســـوء نية شخصية أو سياسية.

الفصل الأول

مفاجأة وإنـذار مبـكـر

هل المفاجأة في حرب يوم الغفران كانت نتيجة لفشل في الإنذار المبكر ؟

قضت لجنة أجرانات في أعقاب حرب يوم الغفران بأن المخابرات العسكرية " أمان " فشلت لأنها لم تقدم الإنذار المبكر المطلوب ولذلك رأت اللجنة أن " أمان " مسئول بدرجة كبيرة عن النجاحات غير المتوقعة التي حققتها كل من مصر وسوريا خلال الأيام الأولى للحرب. وكان رئيس أمان قد وعد جيش الدفاع بأن يتقدم بالإنذار المبكر عن نوايا العدو في شن حرب شاملة خلال فترة زمنية تسمح بالتعبئة المنظمة لقوات الاحتياط. وكان هذا الوعد هو أحد الأسس الراسخة التي وضعت بموجبها الخطط الدفاعية لجيش الدفاع. وقد وجدنا بأنه لم يكن هناك أي أساس لتقديم مثل هذا الوعد المطلق لجيش الدفاع[١].

وقد رأت لجة أجرانات، وكذلك الرأي العام الإسرائيلي، أن فشل جهاز المخابرات الإسرائيلي في إعطاء الإنذار المبكر، كان أحد الأسباب الرئيسية التي حالت دون توفير الإمكانيات لجيش الدفاع لتنفيذ خططه السابقة عن الحرب. ولو نفذت هذه

الخطط لكان في استطاعة جيش الدفاع، كما حدث في الحروب السابقة، تحقيق الانتصار الحاسم والسريع على الجيوش العربية.

ويبدو ظاهريًا، أن هناك أساسًا صلبًا لهذه النظريات ويمكن أن تبني هذه النظريات على التسلسل التالي للأمور : إن القوة الرئيسية لجيش الدفاع تعتمد على وحدات الاحتياط والهدف من القوة النظامية هو عرقلة العدو خلال الحرب إلى أن تستكمل قوات الاحتياط انتشارها. ولكن تعبئة قوات الاحتياط في الوقت المناسب مرهونة بتوقيت إعطاء الإنذار المبكر. ولذلك، نجم عن فشل أمان في مهمته وعن التأخير في إعطاء الإنذار المبكر، التأخر في تعبئة وحدات الاحتياط. كما لم تنجح القوات النظامية، التي خصصت للتصدي للهجوم المشترك المصري - السوري، في مواجهة المحنة. وحقق المصريون والسوريون نجاحات أولية ضخمة. ففي هضبة الجولان وصلت الوحدات السورية حتى ممر " جَمْلا "، وتوغل المصريون في الجبهة الجنوبية حتى طريق الختم (وهو محور الحركة الرئيسي الذي يمتد بموازاة القناة وعلى مسافة تتراوح ما بين ١١-١٣ كيلو مترًا منها. والهدف من هذا المحور تمثل في تمكين وحدات

المدفعية الثقيلة لجيش الدفاع من التحرك وتبادل المواقع فيما بينها على امتداد الجبهة).

وانقلبت الأمور رأسًا على عقب في أعقاب وصول وحدات الاحتياط فيما بعد. وبعد تحمل خسائر جسيمة أمكن صد العدو رغم المفاجأة التي حدثت في المرحلة الأولى للحرب. وقد لخص الفريق احتياط حاييم برليف مثلا تطور الحرب على النحو التالي : " لم تتحقق المكاسب التي أنجزها السوريون والمصريون من خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى بسبب علاقات القوى المفاجئة، ولم تنبع أيضًا من فشل هذه النظرية العسكرية أو تلك. إن كل المكاسب التي حققها المصريون والسوريون في اليوم الأول هي نتيجة واضحة لعدم توافر الإنذار المبكر الكافي ولحدوث المفاجأة. وبعد مرور أربع وعشرين ساعة أو ربما ثمان وأربعين ساعة لم تتوقف الجيوش المعادية فقط عن تحقيق مكاسب إضافية بل أن تقدمها توقف تمامًا، بل إن جيش الدفاع تحول إلى الهجوم المضاد في القطاع السوري وأضاف مناطق جديدة إلى ما يقع فعلا تحت أيديه. وبالنسبة لمصر، فإن جيش الدفاع لم يستطع حقًا إلغاء المكاسب التي حققها المصريون ولكنه انتقل إلى الهجوم المضاد[٢].

وتركز الدراسات الأكاديمية الإسرائيلية التي تناقش عنصر المفاجأة في حرب يوم الغفران على الادعاء القائل بأن جيش الدفاع فوجئ تمامًا وتقول بصورة مؤكدة أن المكاسب التي حققها العدو في المرحلة الأولى جاءت وبصورة حاسمة نتيجة للفشل في الإنذار المبكر(٣).

ويستند هؤلاء الباحثون - مثل غيرهم من الذين تناولوا ظواهر أخرى في العالم لعنصر المفاجأة - على التفسيرات التي ساقتها الباحثة المعروفة في مجال عنصر المفاجأة " روبرتا ولشتتر ". وتعتبر الدراسة التي أعدتها ولشتتر عن المفاجأة التي تحققت في بيرل هاربور(٤) دراسة كلاسيكية في ظاهرة المفاجأة الاستراتيجية وفي فشل المخابرات الرسمية، وإن كان المتخصصون في دراسة المفاجأة الاستراتيجية ينسبون لهذه الدراسة أهمية تتجاوز مجرد تحديد ملامح ظاهرة تاريخية معينة. (المخابرات الرسمية، هي التي تخدم راسمي السياسات وصانعي القرارات على المستوى السياسي. وعلى مستوى الواقع الإسرائيلي فإن المستهلكين للخدمات التي تقدمها المخابرات الرسمية هم أساسًا رئيس الوزراء، ووزير الدفاع، ووزير الخارجية، اللجنة الوزارية لشئون الأمن، الجهاز

الدفاعي، القيادة العامة لجيش الدفاع، ولجنة الشئون الخارجية والأمن في الكنيست. كما أن مجالات عمل المخابرات الرسمية تمتد إلى داخل الدول والمنظمات والأشخاص الذين تسعى الدولة إلى دراستهم ومتابعتهم، ولا يجب أن يكون هؤلاء من الأعداء المعروفين بالذات. وتشمل مجالات عمل المخابرات الرسمية القضايا السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والتكنولوجية والاجتماعية ذات الأهمية على المستوى الرسمي. ويوجد في الولايات المتحدة إطار تنظيمي خاص مسئول عن مجالات عمل المخابرات الرسمية وهو الـ C.L.A وهو المسئول عن وضع " تقديرات المواقف القومية ". وفي إسرائيل تقوم بهذا الدور شعبة المخابرات في القيادة العامة للجيش).

وأحد مكونات التفسير الذي ساقته " ولشتتر " والذي تقبله الدارسون لظاهرة المفاجأة كافتراض عام بدون تمحيص كاف يقول بأن المفاجأة هي نتيجة للفشل في الإنذار المبكر. واعتبار " ولشتتر " المفاجأة التي حدثت في بيرل هاربور أمرا ناجم عن الفشل في إعطاء إنذار مبكر عن الهجوم الياباني المرتقب، يتفق مع رؤية الباحثين لجوهر المفاجأة التي حدثت في حرب يوم الغفران. وكما هو معروف، فإن هؤلاء الدارسين لم يفجروا

السؤالين التاليين : "هل نموذج المفاجأة التي حدثت في بيرل هاربور يتفق بصورة عامة مع المفاجأة التي حدثت في حرب يوم الغفران ؟ وهل من المحتمل أن تكون حرب يوم الغفران نموذجًا آخر من المفاجآت التي لا ترتبط أساسًا بالفشل في إعطاء الإنذار المبكر ؟.

إن ربط مفاجأة حرب يوم الغفران بالفشل في إعطاء الإنذار المبكر ليس فقط بمثابة تفسير مقدم من ضباط كبار ورجال سياسة إسرائيليين شاركوا في هذا الحدث، بل إنه نتيجة لمشاركتهم فيه يمكن التشكيك في موضوعية ما توصلوا إليه من استنتاجات. كما أن هذا التفسير، ليس فقط بمثابة حكم قانوني صادر عن لجنة تحقيق رسمية يمكن القول عنها بأن تحقيقاتها كانت تركز على إعطاء إجابة للسؤال القائل : " من المسئولون عن تقصير يوم الغفران ؟ " وليس بمثابة اختبار لجوهر ومغزى ظاهرة المفاجأة. كما أن هذا التفسير ليس مجرد دراسة لنظرة مقبولة من جانب الرأي العام الإسرائيلي وتستند في أساسها على انطباعات فورية حادة، ولكنها انطباعات غير مباشرة في بعض الأحوال وربما غير دقيقة أيضًا. وبالإضافة إلى كل ما قيل فإنه يمكن ربط تبرير المفاجأة التي حدثت في حرب يوم الغفران

بالفشل في إعطاء الإنذار المبكر من خلال الاستناد على سلسلة طويلة من الدراسات الأكاديمية. وهذا التفسير لا يمثل فقط المسلمات السياسية والقانونية والاجتماعية بل يمثل أيضًا المسلمات العلمية.

وقبل أن نحاول الاعتراض على النظرة المقبولة والتي تربط حدوث المفاجأة بالفشل في إعطاء الإنذار المبكر، علينا أن نحدد ما هو الإنذار المبكر ؟.

يتحقق الإنذار المبكر Early Warning عندما يقوم أي جهاز مخابرات برصد " الإشارات " ونقلها إلى من في يده اتخاذ القرارات خلال فترة زمنية تضمن إمكانية اتخاذ الإجراءات التي اعتبرت، بصورة مسبقة كافية لإحباط المزايا التي قد يحققها الطرف الخصم بفضل المفاجأة، وبذلك يتسنى إحباط الخطوة المعادية المفاجئة(٥).

ويؤكد هذا الوصف أن الحكم على الإنذار المبكر يتم وفقًا لنجاحه أو فشله في توفير الفترة الزمنية الكافية لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بتنفيذ أساليب العمل التي اعتبرت، وبصورة مسبقة، كافية أو ضرورية لإحباط الخطوات التي يقوم الطرف

الذي يريد القيام بمفاجأة ما. وبالنسبة للحالـــة الإســرائيلية فقـد وضعت مقاييس الاختبار بناء على التساؤلات التالية :

ما هي النظرية المسبقة التي تكونت لدى القيـــادة العامــة بالنسبة للتطــور المرتقب للحرب؟. وما هي الخطـــوات التـــي اعتبرت حيوية للتصدي لأي هجوم مفاجئ ؟ وهل استندت خطط مواجهة الهجوم المفاجئ على تعبئة فيالق الاحتياط وحيث هـدف الإنذار المبكر هو التمكين من تحقيق هذه التعبئة فــــي الموعـد المناسب ؟

ولكي نجيب على هذه التساؤلات فإن علينا أن نتـــابع مـــا حدث على مســـتوى ســـيناريوهات الحـــرب وعلـــى مســـتوى الاستعدادات العملية التي نفذت لمجابهة الهجوم المرتقب وكذلـك نتابع ما حدث للنظريات التي تبنتها القيادة العامة لجيش الدفـــاع والزعامة السياسية بالنسبة لجوهر الحرب المستقبلية[٦].

الإنذار المبكر في مجال التخطيط والنظرية الأمنية الإسرائيلية في أعقاب حرب الأيام الستة

نفذت قيادة المنطقة الجنوبية في أوائل أغسطس ١٩٧٢م " سيناريو حرب " أطلقت عليه اسم " الغزال الحديدي "[٧]. وكان من أهداف هذه المناورة فحص الخطط الدفاعية والهجومية لجيش الدفاع إزاء إمكانية اندلاع حرب شاملة في الجبهة المصرية. وكان الهدف الرئيسي لهذه المناورة اختبار قدرة القوات النظامية على التصدي للإنجازات المصرية شرقي القناة في حالة تلقي إنذار مبكر خلال فترة زمنية محدودة تمتد لأربع وعشرين ساعة فقط. وكان مضمون هذا السيناريو هو حدوث هجوم مصري يستهدف احتلال شبة جزيرة سيناء وقطاع غزة.

بدأ السيناريو باندلاع الحرب في الساعة الخامسة مساء حيث أقام المصريون وفي وضح النهار ثلاث رؤوس كباري على امتداد القناة (في المنطقة الشمالية، حيث قطاع القنطرة، وفي المنطقة الوسطى، حيث قطاع كوبري الفردان، وفي المنطقة الجنوبية، حيث قطاع كبريت). وشاركت في عملية عبور القناة أربع فرق مشاة مدعومة بحوالي ٣٨٠ دبابة. والى

جانب اجتياز القناة تم إنزال قوات كوماندو في عمق سيناء عند ممري متلا والجدي وفي منطقة شرم الشيخ. وقامت طائرات مصرية بقصف المطارات العسكرية في رفيديم واوفيرا، كما قصفت منشآت الإنذار المبكر التابعة للسلاح الجوي وللمخابرات في هضبة أم خشيبة. وقام المصريون، بعد نجاح المرحلة الأولى للهجوم، بنقل قوة المدرعات الرئيسية لديهم إلى شرقي القناة بهدف إشراكها في الهجوم. وضمت هذه القوة : لواء دبابات تابع للفرقة الرابعة المدرعة في المنطقة الجنوبية، ولواء دبابات مستقل في المنطقة الشمالية. (مجموع عدد الدبابات بلغ حوالي ٢٠٠ دبابة).

ووفقًا للسيناريو المذكور فقد تلقى جيش الدفاع إنذارًا مبكرًا لفترة زمنية محدودة تصل إلى أربع وعشرين ساعة قبل بدء الحرب. أي أن التشكيل المدرع من قوات الاحتياط لن يصل إلى منطقة رفيديم إلا في ظهيرة اليوم الثالث للحرب وتدور المعارك بدونه خلال اليومين الأولين للحرب. وفي نهاية اليوم الثاني، نجحت القوات النظامية لجيش الدفاع في صد القوات المهاجمة وإعادتها إلى الضفة الغربية للقناة بعد أن مُني المصريون بخسائر جسيمة. وفي اليوم الثالث وحيث سيطر

السلاح الجـوي على سماء القناة قامت فرقة مـــن الاحتيــاطي بقيادة اللــواء " أد ان " بعبور القنــــاة فـــي القطـــاع الشــمالي وأصبحت المعارك تدور في الضفة الغربية في اليـــوم الثــالث للقتال.

ويستدل من وصف هذا الســيناريو أن تقديــرات القيــادة العامة في ذلك الوقت كانت ترى بإمكانية صد الهجوم المصــري بواسطة القوات النظامية فقط. وخصصـــت مجموعــات عمــل الاحتياط للهجوم المضاد ولاستكمال أهداف الحرب في الضفـــة الغربية للقناة.

وذكر اللواء شارون، قائد القيادة الجنوبيـــة فـــي تقييمــه النهائي لهذا السيناريو " توافر قوة تضم ٣٠٠ دبابة فـــي ســيناء تمنحنا القدرة على تحطيم أي هجوم ... " وذكر اللواء جونيـــن، رئيس شعبة التدريبات " أعتقد أن في الإمكان صد الهجود عـــن طريق القوات النظامية، بشرط أن يتواجد اللـــواء الســابع فـــي الخلف ... " ونحن نرى أن حجم قـــوات الصـــد لـــدى القيـــادة الجنوبية كافٍ[٨].

وهناك شاهد آخر على تصور جيش الدفاع لعلاقات القوى المطلوبة لصد أي هجوم مصري، يتمثل في الخطة العملية التـــي

أطلق عليها اسم " برج الحمام ". وتقوم هذه الخطة في الأصـــل. على نشر القوات النظامية لجيش الدفاع في ســـينا، فـــي حالـــة حدوث ما أطلق عليه في حينه اسم " استنزاف " مُحسن " مُعدل " (والذي يعني القيام بعمليات استنزاف واسعة بما في ذلك القيـــام بمحاولات الدفع بقوات للقيام بغارات أو تنفيذ عمليات خطـــف).

واعتمدت الخطة على ٣٠٠ دبابة للفرقة النظامية، كانت موزعـــة على لوائين انتشرا في المنطقة الفاصلة ما بين القناة والمحـــور العرضي بينما يبقى اللواء الثـــالث فـــي المؤخـــرة كاحتيـــاطي.

وجرى نشر اللوائين الأماميين في ثلاثة خطوط : خـــط الميـــاه ذاته، وبالقرب من المواقع الأمامية (٨ سرايا تضم ٢٤ دبابـــة). وفي الخط الثالث الذي يمتد بـــالقرب مـــن المحـــور العرضـــي انتشرت ثلاث كتائب " كتيبة واحدة في محور ميتلا وأخرى فـــي الطاسة وثالثة في وسط القطاع الشمالي. أي انتشرت ٢٠٤ دبابة ما بين القناة والمحور العرضي (محـــور بالوظـــة - طاســـة - ميتلا) موزعة على النحو التالي : ٧٤ دبابة في القطاع الشمالي. ٦١ دبابة في القطاع الأوسط، و٦٩ دبابة في القطـــاع الجنوبـــي وبدعم من ١٢-١٤ بطارية مدفعية ثقيلة وســـرايا مـــن المشـــاة الميكانيكي.

وكان الهدف من خطة نشر القوات هو جعل الرد السريع والمرن واحدًا من مجموعة متنوعة من الإمكانيات. وجرى حساب توزيع القوات بصورة تساعد كل سرية على الدخول إلى ساحة القتال خلال ٢٠-٣٠ دقيقة في كل نقطة من النقاط الدفاعية وتساعد كل كتيبة على الدخول إلى ساحة القتال خلال ٣٠-٦٠ دقيقة ودخول اللواء إلى ساحة القتال خلال ثلاث ساعات ونصف. ولكن لم ينظروا في حينه إلى خطة " برج الحمام " باعتبارها خطة لإدارة الحرب في سيناء بواسطة القوات النظامية، بل كان الهدف منها الرد على أي اجتياز واسع للقناة من جانب الجيش المصري. وفي ظروف معينة كان يمكن اعتبار هذه الخطة - على أكثر تقدير - قاعدة لصد الاستنزاف المحسن الذي يتحول إلى هجوم مصري شامل. وإذا كانت خطة " برج الحمام " قد تقمصت في نهاية الأمر شكل الرد على هجوم مصري شامل، فلم يحدث ذلك بسبب تغيب خطة للجيش للتصدي لهذه الحالة. فالخطة الأصلية التي وضعت للدفاع عن سيناء في وجه أي هجوم شامل حملت اسم " سيلع " (الصخرة). وتطلبت الخطة " سيلع " نشر فرقتين من فرق الاحتياط المدرعة في سيناء وخلف الفرقة النظامية الأمامية. وكان الهدف هو القيام

بهجوم واسع لتصفية القوة المصرية التي تعبر القناة ثم الانتقال إلى الضفة الغربية لها[٩].

ولكن برز عيب في الخطة " سيلع " يعطي الإجابة على السؤال القائل : كيف كان سيتم الدفاع عن سيناء عندما لا يصل إنذار مبكر ولا يتم استكمال تعبئة قوات الاحتياط في الوقت المناسب ؟

يجب أن نفرق في هذا الشأن بين التقديرات التي أعدتها المخابرات الحربية - أمان - والتي كانت ترى بوجود نسبة احتمالات عالية للحصول على إنذار مبكر وبين عدم وجود خطط عسكرية لإدارة الحرب في ظل تغيب الإنذار المبكر الكافي. ولكن الثقة التي كانت لدى أمان فيما يتصل بإعطاء الإنذار المبكر لا تعفي الجيش من واجب الاستعداد للحرب التي قد تندلع في ظل تغيب الإنذار المبكر أو الإنذار المبكر غير الكافي (كرر رئيس أمان في حينه اللواء ايلي زعيرا القول في مناسبات مختلفة بأنه رغم ثقته في قدرة المخابرات الحربية على تقديم الإنذار المبكر وفي الوقت المناسب فقد كان على جيش الدفاع أن يكون مستعدًا لمواجهة احتمال عدم تلقيه هذا الإنذار المبكر. ومن الأمثلة على ذلك أن اللواء ايلي زعيرا أكد في

اجتماع لقادة مجموعات العمل العسكرية في سيناء والذي عقد في مقر كلية القيادة والأركان وبحضور قائد مجموعات العمل تلك اللواء افراهام مندلر ونائبه العميد دوف تماري بأنه رغم كل ثقته في تقديم الإنذار المبكر إلا أنه لا يجب استبعاد احتمال عدم الحصول على هذا الإنذار المبكر وإنه يجب الاستعداد لمثل هذا الوضع). ولا يمكن تبرير العيوب في خطة "سيلع" بالإدعاء بأن المخططين كانوا يستندون، في ظل أي وضع، على حصولهم على الإنذار المبكر وأنهم لم يتصوروا إمكانية حدوث حرب شاملة بدون الحصول على إنذار مبكر.

وقد تحولت خطة " برج الحمام " على أية حال، إلى خطة الصد الخاصة بجيش الدفاع في الجبهة الجنوبية. وعلى النقيض من النظرية الأمنية التقليدية الخاصة بجيش الدفاع - والتي دعت إلى وقف أي هجوم شامل من جانب العدو بواسطة أكبر قدر من القوة التي توفرها الأمة للجيش، أي بواسطة القوات النظامية ووحدات الاحتياط، فقد ترسخت نظرية أمنية تفترض إمكانية تحقيق هذا الصد بواسطة القوات النظامية فقط. ووقع جيش الدفاع في المصيدة : " فقد واصل قادته الإيمان بالإنذار المبكر المضمون "، ولكن من جانب آخر كانت قياداته العليا

تؤمن بقدرة الجيش على صد أي هجوم مصري بدون الاعتماد على قوات الاحتياط التي كانت ستتجه إلى الجبهة بعد تلقي الإنذار المبكر.

ويمكن الوقوف على هذه النظرية ليس فقط بناء على سيناريوهات الحرب أو الخطط التنفيذية لجيش الدفاع. فهناك شواهد عديدة على أن تقديرات الجيش، عشية اندلاع الحرب وفي الساعات الأولى من وقوعها، كانت تقول بإمكانية صد الهجوم المفاجئ المصري السوري إلى أن يتم تعبئة وحدات الاحتياط عن طريق الجيش النظامي. وجاء في تقرير لجنة أجرانات، في الفصل الذي تناول ما توصلت إليه اللجنة بشأن المسئوليات التي تقع على كاهل رئيس الأركان ما يلي : ' ... أضيفت إلى هذه الافتراضات الثقة المفرطة في قدرة جيش الدفاع، وفي جميع الأحوال، على صد الهجوم المعادي الشامل وفي كلا الجبهتين وذلك بواسطة القوات النظامية فقط، وكذلك الثقة في قدرات الجيش الإسرائيلي بتشكيلاته الكاملة على تنظيم صفوفه للدفاع والانتقال السريع إلى الهجوم المضاد والضخم وذلك كشرط للدفاع الفعال عن الدولة. وانطلاقاً من هذا التصور انشغل رئيس الأركان في الساعات التي سبقت اندلاع الحرب

في الإعداد للهجمات المضادة، بدلاً من التركيز قبل ذلك على وقف اندفاعة مفاجأة الهجوم المرتقب ووقف تقدم العدو عن طريق تطوير خططه لتتمشى مع الموقف الذي نشأ ومع افتراضات قائد المنطقة العسكرية في هذا الشأن ".

ولكن برز من قادة جيش الدفاع من ذهب بعيدًا في تجاوزهم لخطة " برج الحمام " وفي ثقتهم الزائدة في قدرتهم على صد الهجوم المصري دون الاعتماد على قوات الاحتياط. ولكن أخطر الاتهامات التي وجهتها لجنة أجرانات إلى قائد المنطقة الجنوبية شموئيل جونين ذكرت بأنه لم يقم في السادس من أكتوبر بنشر ألوية الفرقة النظامية وفق المخطط الموضوع وبناء على الأوامر الصادرة في هذا الشأن. وكان عليه وفقًا لخطة " برج الحمام " أن ينشر لوائين في الخطوط الأمامية ويحتفظ باللواء الثالث في الخلف (كاحتياطي) في منطقة رفيديم. وقرر قائد المنطقة الجنوبية، ولأسباب لم توضحها لجنة أجرانات في تقريرها الختامي، نشر لواء واحد فقط في الأمام وأبقى على اللوائين الآخرين في الخلف[١٠].

ولكن الفشل الأساسي الذي مُني به كان في اليوم الأول للحرب : " فقد ترك تشكيل المدرعات الذي كان تحت إمرته

والذي كان يجب أن ينشره وفق الخطة القيادية على أساس تواجد لوائين في الأمام بالقرب من القناة والإبقاء على الثالث في الخلف، تركه منتشرًا في نظام معاكس. وقال لنا قائد المنطقة الجنوبية أنه أصدر أوامره بأن يتم الانتشار بالصورة السليمة قبل ساعتين من الموعد المقدر للهجوم أي في الساعة ١٦,٠٠. وعلى أية حال فإن الوثائق العملية الخاصة بنفس هذا اليوم لا تتضمن مثل هذه الأوامر. والحقيقة هي أنه حتى الساعة ١٣,٥٥ وحين بدأ العدو في إطلاق النار على امتداد الجبهة لم تكن قوات المؤخرة قد تحركت إلى الأمام للانتشار على خط المياه. وليس هذا فقط بل أن القوة الأمامية لم يجر نشرها بالقرب من خط القناة في الموعد المناسب وفقًا للخطة القيادية، وعندما بدأ إطلاق النار كان جزءًا من هذه القوة بعيدًا عن خط الانتشار النهائي المحدد لها. وعندما بدأت مدرعاتنا في التقدم إلى الأمام اصطدمت بكمين من القوات المعادية البرية التي نجحت في احتلال مواقع لها فيما بين تواجد دباباتنا وبين خط المياه. كما أن القوات البرية المعادية استطاعت السيطرة على المواقع المرتفعة الموجودة في الجانب الشرقي للقناة والتي كانت تسيطر على خط المياه وما وراءه. وانهمرت القذائف المضادة للدبابات

والمدفعية الثقيلة على مدرعاتنا مما أعاق تحركها وألحقت بـــها خسائر جسيمة(١١).

ويمكن أن نفترض بأن قــرار قــائد المنطقــة الجنوبيــة الاحتفاظ بقواته الأساسية في الخلف لم يصدر لأســباب تتصــل بعدم الانضباط أو الإهمال بل بقصد مدرك وهو الاحتفاظ بغالبية القوات لاستخدامها في مرحلة الهجوم المضاد. وأورد " برطوف " في كتابه تفاصيل تتمشى مع هذا الاعتقاد وتدعمــه وقــال : " تولد لدى أحد القادة الذي يحتل مرتبة عسكرية تقع ما بين قــائد القيادة الجنوبية وقادة الألوية في فترة سابقة للهجوم، وعلى أكـثر تقدير في مساء الخامس من أكتوبر مصطلح جديد وهو " بـــرج الحمام الصغير " للتفرقة بينه وبين الخطة المعروفة باسم " بـرج الحمام الموسع ". ويبدو أن هذه الفكرة مرتبطة بـــالنظرة التـــي كانت ترى بأنه يجب البدء، وفي أسرع وقت، بهجوم مضاد وأنه يجب ادخار أكبر قدر من القوات الخاصة "بالفرقة" للقيام بـــهذا العمل. ووضعت خطة عشية يوم الغفران، في مقر قيادة الفرقـــة التي يقودها " البرت " تقضي بنشر اللواء الذي يقوده ريشف فقط للقيام بالأعمال الدفاعية بينما يتحرك اللـــواء الــذي يقــوده دان شومرون وبسرعة في اتجاه الشــمال للقيــام بعمليــة العبــور

المحدودة للقناة والمعروفة باسم " صفاينا " بينما يظل اللواء الذي يقوده جابي في المؤخرة كاحتياط. وفي حالة نجاح الخطة " صفاينا " ينضم هذا اللواء للهجوم مستغلاً النجاح الذي تحقق ويشارك في تنفيذ الخطة الثانية الأوسع والتي تحمل اسم " بن حايل " (الجَسور)(١٢).

وكان الافتراض القائل بأنه يمكن في المرحلة الأولى صد الهجوم العربي بواسطة القوات النظامية، غير قاصر أيضًا على القيادات العسكرية الكبرى في جيش الدفاع وغير قاصر أيضًا على الجبهة المصرية فقط. ويبدو أن هذا الافتراض كانت تؤمن به أيضًا القيادة الأمنية المدنية. وتفجر في مكتب وزير الدفاع موشيه ديان في السادس من أكتوبر في الساعة الخامسة والخمسين دقيقة، نقاش بين وزير الدفاع وبين رئيس الأركان حول حجم قوات الاحتياط المطلوب تعبئتها في الجبهة الشمالية وذلك على ضوء الأنباء الواضحة التي ذكرت بأن الحرب ستبدأ في المساء. وأورد برطوف الجزء التالي من هذا النقاش الذي جاء فيه " كان الافتراض الخاص بدافيد العزار (دادو) يرى أنه إذا بدأت الحرب في المساء ونجح المهاجمون هنا وهناك في التسلل، فيجب التحول إلى هجوم مضاد وبأسرع وقت مستطاع

بهدف تدمير الجيش السوري. والخطة الموضوعة (للهجوم المضاد) تتطلب استخدام ثلاث فرق في مثل هذا الهجوم المضاد في الجبهة السورية. وهنا سأل ديان : ما الفرق بين تعبئة تلك الفرق في المساء إذا بدأت الحرب فعلاً - وبين تعبئتها الآن في الصباح ؟ وهنا قال " دادو " : " الفرق هو ١٢ ساعة. وقال ديان في استغراب : " هل يريد رئيس الأركان تعبئة قوات للقيام بهجوم مضاد في حرب لم تبدأ ؟.

وقال برطوف : " إنه مستعد للموافقة على تعبئة قوات للدفاع عن هضبة الجولان ولكنه غير مستعد لتعبئة القوات للقيام بهجوم مضاد إلا بعد أن تطلق الطلقة الأولى "[١٣].

ولم تكن خلفية النقاش الذي دار بين رئيس الأركان ووزير الدفاع تتمثل في مسألة حجم القوات المطلوبة لصد الهجوم السوري - يبدو أن الاثنين كانا متفقان في الرأي على هذه المسألة - بل كانت حول مدى الحاجة إلى تعبئة القوات المطلوبة للقيام بالهجوم المضاد قبل أن تبدأ الحرب. وبدلاً من اتخاذ قرار فوري بالتعبئة الجزئية، قرر وزير الدفاع ورئيس الأركان نقل الأمر لرئيس الوزراء ليتخذ القرار فيه. وهكذا

كان ثمن هذا النقاش فقدان ساعتين ثمينتين إضافيتين إلى أن صدر القرار بتعبئة قوات الاحتياط.

وتأكد صدق الشواهد التي أشارت إلى أن التخطيط الفعلي لعملية الصد الأولى للهجوم، وهو التخطيط الذي وضع عشية يوم الغفران على أن تقوم به القوات النظامية، تأكد في التخبط الذي شمل القيادة العليا حول كل ما يتصل بدعم تشكيلات جيش الدفاع في جبهة هضبة الجولان. فقد كانت التغطية الكاملة لمواجهة احتمال اندلاع الحرب في أي لحظة، تشمل هذه الجبهة بدءاً من قائد المنطقة الشمالية وحتى قادة الوحدات الميدانية. وكانت هذه اليقظة والحساسية تجاه التطورات المحتمل حدوثها عشية اندلاع الحرب، شيئًا مشتركًا لكل من قائد المنطقة الشمالية ورئيس الأركان ووزير الدفاع. واشترك الثلاثة أيضًا في الخوف من المكاسب الأولى التي قد يحققها السوريون قبل الانتهاء من تعبئة وحدات الاحتياط (الاحتلال المؤقت لمنطقة " رمات مجشيميم ") حتى لو أعطى الإنذار المبكر في الوقت المناسب.

وقام وزير الدفاع بزيارة قيادة المنطقة الشمالية قبل أيام من اندلاع الحرب، وفي أعقاب ذلك انتشرت في الشمال

تعزيزات إضافية تتكون من وحدات مدرعة. ودعيت الحكومة في الثالث من أكتوبر لمناقشة احتمال حدوث هجوم سوري في هضبة الجولان بالإضافة إلى مناقشة الاستعدادات المطلوبة في هذا الشأن. وقبل هذا الاجتماع بساعات معدودات طلب وزير الدفاع من رئيس الأركان أن يقدم له وثيقة مكتوبة تتضمن أحدث المعلومات عن قوات العدو المنتشرة في هضبة الجولان. وتبين فيما بعد دقة هذه الوثيقة التي أعدتها المخابرات الحربية - أمان - وتحدثت عن حجم القوات السورية المرابطة في الجبهة. وجاء في الوثيقة المذكورة أن هناك ما بين ٧٥٠-٨٥٠ دبابة منتشرة في هذه الجبهة، منها ٦٠٠ منتشرة في الخط الدفاعي الأول (مقابل ٢٥٠ دبابة كانت متواجدة في الجبهة في فترة التوتر الأخيرة التي حدثت في مايو ١٩٧٣) بالإضافة إلى أكثر من ٥٥٠ قطعة مدفعية ثقيلة منها ٣٧٠ منتشرة في الخط الدفاعي الأول (مقابل ١٨٠ قطعة مدفع كانت منتشرة في شهر مايو)، وتواجدت ٣١ بطارية صواريخ مضادة للطائرات في المساحة التي تفصل ما بين دمشق والجبهة (مقابل بطاريتين فقط كانت موزعة في هذه المساحة في بداية ١٩٧٣)[١٤].

وكان وزير الدفاع ورئيس الأركان وقائد المنطقة الشمالية على إدراك بأن انتشار القوات النظامية لجيش الدفاع في هضبة الجولان لا يوفر الضمان المطلق لعدم قيام السوريين بعملية خاطفة ناجحة ولكنهم لم يروا أن السوريين قادرون على احتلال أجزاء واسعة من الجولان بمثل هذا الحشد من القوات التي ترابط أمامها قوات نظامية إسرائيلية وبما يساعدهم على تحقيق هدفهم العملي أو على تحقيق الهدف من حربهم. وذكر موشيه ديان في محاضرة ألقاها في النادي الهندسي في تل أبيب في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر ١٩٧٣م ما يلي :

" باعتباري وزيرًا للدفاع فلم أتصور هذه الفعالية والقدرة القتالية لدى العرب رغم أنني أعلم مسبقًا أنواع الأسلحة التي في أيديهم والكباري التي أعدت للعبور (عبور القناة) وكميات الأسلحة التي في حوزتهم. فأنواع الأسلحة وأساليب استخدامها في القتال، هي التي أدت إلى هذه الفعالية التي فاقت تقديراتي التي اعتمدت على المعلومات المخابراتية والمعطيات الكمية التي كانت في أيدينا. ومن الصواب القول قبل حرب يوم الغفران بأسبوع أو أسبوعين بأننا لم نتوقع قيام العرب بهذا الهجوم الواسع، ولكن رأينا السحب وهي تتجمع ودعمنا الجبهتين

الشمالية والجنوبية بقوات مدرعة وبالحجم الذي اعتبره جيش الدفاع وشخصي أيضًا، كافيًا للصمود إلى حين تعبئة قوات الاحتياط سواء في جبهة القناة أو في الجولان. وقد افترضنا أن تلك القوات قادرة على صد أي هجوم عربي إلى أن يتم تعبئة وحدات الاحتياط. وأستطيع القول بأنه لم يكن هناك لا مبالاة أو إهمال "(١٥).

وكان التقدير السائد لدى القيادة العامة لجيش الدفاع عشية الحرب هو أن كل شئ قد بذل لامتصاص أي هجوم. وأوضح رئيس الأركان خلال المشاورات التي جرت في مكتب رئيس الوزراء في الثالث من أكتوبر، وقبل ٧٢ ساعة من بدء الهجوم بأنه على ضوء الحشود العسكرية التي رُصدت، سواء في الجبهة المصرية أو السورية فمن المحتمل وبصورة فنية أن يبدأ العرب الهجوم بعد تلقينا إنذارًا مبكرًا قصير للغاية(١٦). وكان رئيس الأركان يقصد بتعبير " إنذار مبكر قصير للغاية " إن ذلك يمتد لساعات حيث أن القوات السورية والمصرية كانت منتشرة في وضع هجومي. وكانت المسافة الفاصلة ما بين أماكن انتشارها وأهدافها المرتقبة تبلغ مئات معدودة من الأمتار وكانت تصل إلى أمتار معدودة في قطاعات معينة. ومن هنا كان من

المستحيل أن تتركز عملية نشر القوة المدافعة على أساس الإنذار المبكر.

وكان لدى رئيس الأركان تقديراته بشأن التأثيرات المحتملة للهجوم المفاجئ في ظل انعدام الإنذار المبكر. وقد وصف المكاسب السورية المحتملة على النحو التالي :

" إنهم قادرون على التوغل إلى المنطقة ولكن لا يمكنهم احتلال تجمعات سكانية أو احتلال جميع الجولان. ويمكنهم أيضًا الاستيلاء على موقع عسكري أو الوصول إلى مستوطنة ما وسيكون في وسعنا صدهم ووقف تقدمهم واستخدام السلاح الجوي والدفع بمزيد من القوات وحسم الحرب[١٧].

وكان رئيس الأركان في كامل وعيه وهو يُدلي بهذا الرأي. كما كان هذا هو نفس الموقف المبلور داخل رئاسة الأركان والذي تبناه وعبر عنه الفريق " العزار " في مناسبات مشابهة في الماضي[١٨]. وقد ذكر دافيد العزار بعد منتصف ليلة جمعة الخامس من أكتوبر ١٩٧٣ : " الدبابات المنتشرة في الجنوب (بما في ذلك أطقم المدرعات التي نقلت جوًا إلى الجنوب في ساعات المساء) و١٧٨ دبابة منتشرة في الشمال (بما في ذلك الأطقم الخاصة باللواء السابع) والسلاح الجوي الذي

وضع في حالة تأهب قصوى على امتـــداد الأربـــع والعشـــرين ساعة تجعل أوضاعنا على ما يرام[١٩]. والمقصود هنا الأربــــع والعشرون ساعة قبل وصول وحدات الاحتياط.

وقد برزت هنا نظرة متباينة بين الشعور بالثقـــة الذاتيـــة والاستعداد للمخاطرة وبين قيمة الإنذار المبكـــر. فكلمـــا زادت مشاعر الثقة الذاتية في النفس وتعاظم الاستعداد للمخاطرة، كلمـا قلت أهمية الإنذار المبكر وقلت الحاجة للاعتماد عليه كعنصــــر حاسم لمصير الحرب. فقد كان مستوى الثقة الإسرائيلية الذاتيـــة في النفس عشية حرب يوم الغفران عظيمًا وكان الشعور العـــام داخل القيادة العامة هو أنه حتى بدون الحصول على إنذار مبكـر فليس أمام العرب أي فرص لتحقيق مكسب حاسم. وقـــد عكـس الفريق دافيد العزار مشاعر الثقة الذاتية التـــي انتشـــرت داخـــل جيش الدفاع قبل الحرب في لقاء نشر فــــي صحيفـــة دافـــار - الصادرة في ١٩٧٣/١/٢٦ حيث لخص فيه أعماله خلال الســـنة الأولى التي قضاها في منصبه كرئيس للأركان. وقد قيم علاقات القوى على النحو التالي : " أعتقد وبناء على علاقات القوى فـــي عام ١٩٧٣م بأنه ليس أمام المصريين أي فرصة لتحقيق إنجـــاز عسكري ذى مغزى .... وإذا اندلعت حقًا اشتباكات جديدة فـــإن

فرصنا في أن نحقق النصر وفرصهم في تلقي الهزيمة ستبقى بهذه الصورة أو تلك، بنفس الصورة التي كانت عليه في عام ١٩٦٧[٢٠]. وذكر قائد المنطقة الجنوبية في ذلك الحين أرئيل شارون خلال نقاش جرى داخل القيادة العامة عشية عيد فصح ١٩٧٣ : " إن وجود ١٠٠٠ دبابة لدى مصر و ٥٠٠ دبابة لدى سوريا لا تعرض الآن أمن إسرائيل للخطر وكذلك لا تعرض قدرتها على الدفاع، ومن المواقع التي ترابط فيها، للخطر[٢١].

وهذه الأقوال التي أشرنا إليها مأخوذة من التصريحات التي ترددت قبل الحرب. وقد برزت بعد الحرب وخلال تقديرات الموقف المعتمدة والصادرة عن ضباط الاحتياط بشأن جوهر المفاجأة، مشاعر الربط بين الثقة الذاتية وبين تراجع قيمة الإنذار المبكر، (سنعرض هنا لبعض النماذج). فكل الأقوال التي أشرنا إليها صادرة عن ضباط في الخدمة الفعلية أو تركوها. وقد قلل هذا الكتاب من الاهتمام بالنظريات التي كانت سائدة داخل مراكز أخرى في أيديها سلطة اتخاذ قرارات مثل : الحكومة في مجملها، الكنيست وبخاصة لجنة الشئون الخارجية والأمن ومراكز تشكيل الرأي العام والتي تقع خارج إطار المؤسسات الرسمية. وهذه النظرة لا تنبع من عدم توجيه

الاهتمام إلى تلك الدوائر بل تنبع من حقيقة أن هذه الدوائر لــــها تأثيرات محدودة على النظريات الاستراتيجية في الفترة ما بيــن ٦٧-١٩٧٣. وعلى النقيض من الكثافة والعمــق اللذيــن مــيزا الكتابات العربية عن القضايا الاستراتيجية بعد الهزيمة العربيــة في ١٩٦٧، فإن الكتابة في هذه الموضوعات داخل إسرائيل فــي الفترة الواقعة ما بين حرب الأيام الستة وحرب يــوم الغفــران كانت كتابات نظرية وصحفية فـــي أساســها، وكــان المكــون الانتقادي (النقدي) فيها ضئيلاً للغايـــة. وتقريبًــا لــم تتواجـد المقالات التي تضع نظرية الأمن الإســرائيلي أمــام علامــات استفهام. وحسنًا لم يتبلور رأي عام يعبر عـــن نظريــات كــان يمكنها أن تشكل تحد للنظريات السائدة دخل الدوائر العسكرية.

وقد ذكر اللواء احتياط مئير عاميت : " لقد أرسينا لأنفســنا وضعًا أو توجهًا أو موقفًا يقوم على الثقة المبالغ فيها في النفــس وعلى الشعور " أنا والطوفان من بعدي "، وعشـــنا فــي هــذا الوضع وارتوينا منه حتى الشبع وسمحنا لأنفسنا بأن نتصـــرف خلاله كما يحلو لنا. وقد استند هذا الشعور على موقفين أساسين: " قوتنا العظيمة وضعف قيمة وقدرات العدو. وقادنا هـــذا إلـــى

الشعور بالثقة الزائدة والتي يمكن تلخيصها في العبارات المحدودة التالية : " ببساطة ... هذا لا يمكن أن يحدث "[٢٢].

وذكر اللواء احتياط تسيفي زامير : " كان هناك تصوراً عام ليس فقط تجاه المخابرات بل وتجاه أنفسنا أيضاً. وكانت هناك نظرية تقول بأنه مشكلة " الكم " قد سويت وذلك على عكس ما تعلمناه من أن الكم لا يتحول إلى كيف. وببساطة اعتقدنا أنهم غير قادرين على فعل شئ. وكانت هذه هي أيضاً مشكلة شخصية بالنسبة لي. لقد نظرنا إليهم باستخفاف. وهناك من قال " ضع كل ما لديهم من قوات مظلات وما لديهم من صواريخ " ساجر " فوق تبه وسأقوم بالقضاء عليهم بدبابتين فقط[٢٣].

وذكر قائد المنطقة الجنوبية شموئيل جونين : " أن أكبر الأخطاء التي ارتكبناها تتمثل في إننا نظرنا إليهم باستخفاف ولم نقدر قدراتهم بصورة صحيحة وكنا نظن أن القوات النظامية فقط وبما لديها من ٢٧٠ دبابة وبعض القطع المدفعية والسلاح الجوي قادرة على صد أي محاولة هجومية"[٢٤].

وقام العميد دوف تماري بنشر مقال شامل استعرض فيه حرب الغفران كما تجسدت داخل المفاهيم والتقديرات الخاصة

بقادة جيش الدفاع عشية اندلاعها. وقال في هذا المقال * إن إمكانية حدوث خطأ مخابراتي يؤدي إلى صدور قرار بتعبئة الاحتياط ونشرهم للقتال قبل بدء الحرب، نوقشت وقيمت طوال السنوات السابقة للحرب. وعادت القيادة العامة في الأشهر السابقة للحرب إلى مناقشة إمكانية أن يجئ الإنذار المبكر قبل الحرب بفترة زمنية قصيرة. وفي مثل هذه الحالة فإن جيش الدفاع كان يعتمد على الوحدات النظامية، وعلى القوة النيرانية للسلاح الجوي وعلى القطع البحرية القتالية السريعة لدى السلاح البحري. ولكن الخطأ الأساسي تمثل في أن التقديرات لدى القيادة العليا تجاه مدى قدرة صمود الوحدات النظامية في وجه أي هجوم سوري - مصري شامل، وبدون الحصول على دعم نيراني وهندسي كاف (المتوافر لدى الوحدات التي تضم قوات الاحتياط التي سيجرى تعبئتها)، هذه التقديرات كان مبالغا فيها وخاطئة أيضًا. فالمهام التي كلفت بها الوحدات النظامية لم تتفق مع قدراتها (التي كانت مرتفعة للغاية وستظل كذلك) سواء من حيث الحجم أو من حيث الفترة الزمنية التي طولبت خلالها الوحدات بالصمود في وجه العدو إلى حين وصول قوات الاحتياط.

ومن الممكن أن يكون هذا القرار الخاطئ قد أثــر أيضـًا على القرار الخاص بعدم تعبئة وحدات الاحتياط علـــى أســاس الإدعاء : " بأنه في أسوأ الأحوال فمازالت لدينا القوات النظاميــة التي ستقوم بوقف الهجوم "(٢٥).

ولا يستدل من هذا الوصف أن التخطيط العملـــي لجيــش الدفاع لم يتأثر على الإطلاق من الاعتقاد الذي كان متواترًا بيــن القيادات العسكرية والسياسية عشية الحرب بشأن قـــدرة شــعبة المخابرات على توفير الإنذار المبكر. ولكن يبدو أنه كانت هنـاك مبالغة كبيرة في الوصف الذي حظي بالقبول عن كـــون الثقــة الذاتية هي العنصر الحاسم الذي استند عليه التخطيــط العملــي. ومن الأمثلة على ذلك أنه عقدت " جلسة تلقين " في مكتب رئيس هيئة العمليات اللواء " يسر ائيل تل " في يونيو ١٩٧٢ وذلك فــي إطار الاستعدادات الخاصة باستعراض التقديــرات المخابراتيــة السنوية " التي تعدها " أمان " وتعرض على القيادة العامة. وفــي هذه الجلسة طلب - رئيس هيئة العمليات من رئيـــس أمـــان أن يقدم له وثيقة يذكر فيها بالتفصيل حجم الإنـــذار المبكــر الــذي تستطيع أمان تقديمه لجيش الدفاع قبل انـــدلاع الحـــرب علـــى الجبهتين السورية والمصرية. وقدم رئيس أمان الوثيقة المطلوبــة

بعد ذلك بأسبوع وحيث تضمنت تفاصيل عن وسائل التغطية المعلوماتية عن التحركات والأعمال التي يجب أن يقوم بها الجيشان المصري والسوري وبالصورة التي تراها أمان وذلك في حالة بدء الاستعدادات العملية للحرب. وجاء في الوثيقة أن أمان يمكنها تقديم الإنذار المبكر وبدرجة كبيرة من المعقولية عن الهجوم المصري قبل أن يبدأ بست وثلاثين ساعة على الأقل وبدرجة أقل من المعقولية بالنسبة للهجوم السوري[٢٦]. ومع ذلك أكدت الوثيقة أن أمان ستواجه صعوبات عديدة في تقديم الإنذار المبكر إذا حدث الهجوم على خلفية تدريبات شاملة يقوم بها الجيش المصري[٢٧].

وأعدت هذه الوثيقة (أو برامج وتقديرات موقف بشأن إنذارات مبكرة إسرائيلية أخرى، يُحتمل أن تكون قد ظهرت قبل حرب يوم الغفران ولكن لم أعلم عنها أي شئ. فبرامج التغطية المعلوماتية الخاصة بالإنذار المبكر هي من الموضوعات الحساسية والسرية للغاية. وعلى ذلك، ليس هناك ما يؤكد عدم وجود وثائق هامة أخرى في هذا المجال ولكن لم يكشف النقاب عنها) كخلفية لمناقشات حول " تقييم الوضع " ولكن لم نجد ما يثبت أن رؤية قيادة الجيش لتطورات الحرب كانت مقرونة،

وبصورة واضحة، بفترة زمنية لتلقي هذا الإنـــذار تصـــل إلـــى ٢٤-٤٨ ساعة أو أكثر. وكما ذكرنا، فـــإن كـــل مـــا يتسنى استخلاصه في هذا الشأن، هو وجود افتراض عام يقـــول بـــأن القوات النظامية ستصد العدو إلى حين وصول قوات الاحتياط.

ويجب التفرقة بين " النظـــرة " والمخطـــط "، فـــالمخطط الأساسي لجيش الدفاع للدفاع عن سيناء فـــي وجـــه أي هجـــوم مصري شامل - المخطط الذي يعـــرف باســـم ســـيلع - كـــان مشروطًا حقًا بالحصول على إنذار مبكر. ولكن، وكما ســـبق أن رأينا في مكان آخر مثل الخطة المعروفة باسم " برج الحمـــام " فإن الخطة التي استندت فقط على الجيش النظامي وخُصصـــت في الأساس لحرب استنزاف وليس لحرب شـــاملة، هـــي التـــي عكست نظرة جيش الدفاع لصورة إدارة الحرب، وهـــي التـــي فرضت في واقع الأمر الخطوات التـــي اتخـــذت فـــي الجبهـــة الجنوبية في الأيام التي سبقت الهجوم المصري وفـــي اليوميـــن الأولين للحرب (خرجت بانطباع بعد الأحاديث التـــي أجريتـــها مع قادة ميدانيين وبخاصة على مستوى قادة الفرق والألوية، أنـــه نشأ سوء فهم وعدم اتصال بين مستوى القيادة العامة والقيـــادات الميدانية. فلم يتم، على مستوى القيادة الميدانية، وضـــع تصـــور

بشأن حاجة هذه القيادة خلال الحرب إلى وقف الهجوم المعادي الشامل باستخدام القوات النظامية فقط. وفي مقابل ذلك، وكما سبق أن قيل، فقد ترسخت لدى قيادة جيش الدفاع الثقة في قدرة الوحدات النظامية على وقف أي هجوم شامل حتى في الظروف التي لن يتسنى فيها الحصول على إنذار مبكر كاف ولن يتسنى فيها أيضًا تعبئة قوات الاحتياط).

وكما هو معروف، سواء على المستوى الحكومي أو على مستوى اللجنة الوزارية لشئون الأمن أو داخل الأطر الأضيق وغير الرسمية والتي اعتادت رئيسة الوزراء جولدا مئير عقدها لدراسة القضايا الأمنية والتي أطلق عليها اسم " مطبخ جولدا "، (كانت اللجنة الوزارية لشئون الأمن لا تضم سوى عدد محدود من وزراء الحكومة. وظل ذلك معمولاً به خلال الحكومات الإسرائيلية السابقة لحكومة جولدا مئير. ولكن توسعت تلك اللجنة في عهد جولدا مئير ولأسباب ائتلافية أيضًا وشملت جميع وزراء الحكومة. وبذلك أصبحت اللجنة إطارًا ضخمًا ومترهلاً للغاية. ولكن رئيسة الوزراء اعتادت التشاور في الموضوعات الأمنية مع جزء من الوزراء فقط الذين كانت تقدر نصائحهم وخبرتهم في تلك الموضوعات. وفي أحوال متأخرة كانت لجنة

الشئون الأمنية تجتمع للموافقة على ما سبق بلورته داخل هذا الإطار الضيق غير الرسمي).

لم يُجر أي نقاش مبدئي حول الجدول الزمني للإنذار المبكر الذي يحتاجه جيش الدفاع لتنظيم صفوفه (وذلك استنادا على الأحاديث التي أقامها كاتب هذه السطور في يوليو ١٩٧٩ مع نائب رئيس الوزراء في ذلك الحين يجآل آلون الذي شارك في جزء كبير من المشاورات غير الرسمية، ومع موشيه كول الذي كان يتولى في ذلك الحين منصبًا وزاريًا وكان عضوًا في اللجنة الوزارية لشئون الأمن). وهكذا لم يوضح أحد للوزراء أن قدرة جيش الدفاع في صد أي هجوم عربي مشروطة بالحصول على إنذار مبكر قبل الهجوم بثمان وأربعين ساعة، ولم يعط أي وصف آخر للفترة الزمنية المطلوب الحصول فيها على إنذار مبكر. ورغم كل ما قيل، فقد انتشر داخل الحكومة الشعور القائل بأن وسائل التغطية والإنذار المبكر من جانب المخابرات الإسرائيلية هي الضمان لعدم حدوث هجوم عربي قبل أن يسبقه الحصول على إنذار مبكر. وكانت الثقة في ذلك كبيرة ولكن لم يقل أحد بوضوح أن عدم الحصول على الإنذار المبكر سيكون بمثابة " كارثة " (كرر برطوف في كتابه

استخدام مصطلح " كارثة " الذي استخدمه رئيس الأركان دافيد العزار مرات عديدة قبل الحرب لتمييز موقفه تجاه التأثير المتوقع للهجوم العربي الذي لا يسبقه الحصول على إنذار مبكر لمدة ٢٤ ساعة على الأقل، وفي أماكن أخرى لمدة عدة أيام. ويشعر قارئ هذا الكتاب بأن هذا كان موقف القيادة العامة لأن الخطط العملية استندت عليه وأن ما حدث خلال المرحلة الأولى للحرب نبع من عدم الحصول على إنذار مبكر قبل ٢٤ ساعة من اندلاع الحرب. ونظرًا لأن أغلب الشواهد التي قدمها برطوف لم توضع حتى الآن تحت تصرف " محققون آخرون " فلا يتبقى لنا إلا فحص هذه النقطة بالتشاور مع بعض الضباط الكبار ومع جزء من أعضاء الحكومة عشية حرب يوم الغفران. ولم يقر أي واحد من هؤلاء أن رئيس الأركان اعتاد استخدام مصطلح " كارثة " أو أن هذا المصطلح أو ما شابهه كان مقبولاً في ذلك الحين من جانب القيادة العامة لدى تقييمها لمغزى الإنذار المبكر الذي يجب الحصول عليه قبل ٤٨ ساعة من الحرب).

كان موضوع الإنذار المبكر هو أحد المكونات الرئيسية في نظرية الأمن الخاصة بجيش الدفاع في فترة ما قبل حرب

الأيام الستة. واستندت مخططات عمل جيش الدفاع على الإنــذار المبكر الذي توفره له شعبة المخابرات حتّى يتســنى لــه القيــام بهجوم وقائي وبهجوم مضاد فوري أو ينظم صفوفه في وضـــع دفاعي. ولكن اتسع، بعد حرب الأيام الستة، العمق الاســتراتيجي لإسرائيل وتراجعت معه الحساسية تجاه المخاطر التي تكمن فــي الهجوم المفاجئ. وحدث تآكل كبير في حيوية الـــردع كمكــون حاسم في نظرية الأمن العملية لدولة إسرائيل والتي تختلف عــن النظرية المعلن عنها. صحيح أنه جرى التأكيد النظري على هـذه النظرية في المقالات والخطب التـــي تتنــاول نظريـــة الأمـــن باعتبارها مكونًا هامًا في نظرية الأمن القوميـــــة، إلـــى جــانب التحسن العملي الذي حدث في تلك الفترة في نظام الإنذار المبكر المخابراتي، إلا أن النظرية الاستراتيجية لجيش الدفاع ورؤيتـــها لأسلوب إدارة الحرب، لم تكن مشروطة، وبصـــــورة حاســمة، بتحديد أقل فترة زمنية لتلقي الإنذار المبكر.

تأثير الإنذار المبكر " قصير المدى " على استعدادات الجيش الإسرائيلي في السادس من أكتوبر

علمت المخابرات الحربية - أمان - في يوم الخميس الموافق الرابع من أكتوبر ١٩٧٣ بأنه ستبدأ في نفس الليلة عملية ترحيل سريعة لعائلات المستشارين السوفيت من سوريا ومصر. وتبين فيما ورد من أنباء أن طائرات " ايروفلوت " في طريقها إلى الشرق الأوسط وأنه لم تتح الفرصة لعائلات هؤلاء المستشارين لحزم أمتعتهم. وبحلول ظهيرة يوم الجمعة الخامس من أكتوبر كان الجسر الجوي يتجه عائدًا إلى الاتحاد السوفيتي.

ووصلت في نفس الليلة إلى موقع القيادة العليا نتائج تحليل الصور الجوية التي التقطت طوال اليوم لمنطقة غربي قناة السويس. وكشفت هذه الصور، وبوضوح، عن حشود لتشكيلات هجومية للجيش المصري تتكون من : خمس فرق مشاة ميكانيكية منتشرة على خط القناة بكامل معداتها وعدتها، وتتخذ أوضاع طوارئ، بالإضافة إلى مدفعية ثقيلة منتشرة على امتداد الجبهة وحيث يصل عددها الإجمالي إلى ١١٠٠ قطعة. كما تتواجد على امتداد القناة مخازن ومعدات عبور وكباري

متحركة. واحتلت دبابات تابعة لفرق المشاة الميكانيكيـة مواقـع لإطلاق النار خلف السواتر الترابية.

وعلى ضوء هذه المعلومات قام رئيس أمان بتغير موقفـه بشأن الحاجة إلى بذل كل الخطوات من أجل التصدي للمخـاطر وفق الصورة التي يوصي بها رئيس الأركان وذلك بعد أن كـان يدعى، من قبل وبكل شدة، بأنه لا يجب تفسير العلامات المشـار إليها على أنها تعني الاستعداد للحرب. كما لم يتخل عن تقديراته السابقة عن تدني احتمالات حدوث الحرب واستمر يتمسك بـها حتى صبيحة يوم السادس من أكتوبر[٢٨].

ومنذ هذه المرحلة بدأ أصحاب القـرارات يفرقـون بيـن مستويين لتناول الأحداث المرتقبة: مستوى " تقديـر الموقـف " ومستوى " الاستعدادات ". فعلى مستوى " تقدير الموقف " لم تؤد الأنباء التي تحدثت عن سحب أسر الخبراء السوفيت من مصـر وعن حشود القوات المصرية والسورية إلى زعزعة الاسـتنتاج القائل بأن العرب لن يخاطروا بالدخول في صدام عسكري كامل مع إسرائيل. وفي مقابل ذلك وعلى مستوى الاستعدادات، حـدد أصحاب القرارات العسكرية بدءًا من يوم الخميس الرابـع مـن أكتوبر، بأنه إذا كانت تقديرات الموقـف تشـير إلـى تراجـع

احتمالات الحرب فيجب مع ذلك اتخاذ كل الوسـائل المطلوبة لمواجهة الحرب.

إن أحد المبادئ الراسخة في كل تفكير عسكري وفـي أي حسابات يقوم بها جيش الدفاع يري أن التخطيط العسكري هـو نتيجة من نتائج" قدرات العـدو" وكمـا تتضمنـها المعلومـات المخابراتيه التي تتناول حجم القوة العسكرية التي يحشدها العـدو للهجوم. وعلى الاستعدادات العسكرية أن تلبي كل الاحتمـالات من أن الخصم قد يستنفذ كل ما لديه من قدرات في تنفيذ عملياته الهجومية. والرد من جانب المخطط (القائم بالتخطيط) العسـكري يستند على الأخذ في الاعتبار بأسوأ الاحتمالات حتى إذا كـانت احتمالات حدوث ذلك متدنية (تحـدث عـن هـذا الموضـوع الجنرال تل في حديث مع مؤلف هذا الكتاب فقال بأنه من جـانب القيادة العسكرية التي في يدها اتخاذ القـرارات فـإن عليـها أن تفرق بين نوعين من الإنذارات المبكرة :

الأول : هو الإنذار المبكر الذي يشير إلى أن العدو غـير من استعداداته بصورة تساعده على الدخول فـي الحرب.

الثاني : هو الإنذار المبكر الذي يتحدث عن نوايا العدو في دخول الحرب.

ووفق نظرية الأمن الخاصة بجيش الدفاع فإن القرارات الخاصة بالتنفيذ الفوري للخطوات المطلوبة للتصدي للهجوم، بما في ذلك تعبئة الاحتياط، يجب أن تتخذ عند تلقي الإنذار المبكر الخاص بحدوث تغييرات في استعدادات الخصم وطالما وصل إنذار مبكر يشير إلى أن الخصم يمكنه من الناحية الفنية، بدء الحرب بدون اتخاذ استعدادات إضافية، فعلى من في يده القرار أن يعمل كما لو أن الحرب توشك على الاندلاع. ومن هذه الناحية يرى الجنرال تل بأن أمان أعطى حقا الإنذار المبكر المطلوب منه قبل الموعد الذي حدده لتقديم هذا الإنذار المبكر).

ولكن برز احتمال من يقول بأن تمسك رئيس الأركان في مايو ١٩٧٣ بهذا المبدأ هو الذي أدى إلى الفشل في أكتوبر فقد رصدت المخابرات الحربية في مايو ١٩٧٣ حشودا عسكرية واستعدادات مصرية واسعة للقيام بهجوم ضد إسرائيل. ورغم توافر العلامات الماثلة للعيان لاحتمال اندلاع الحرب الا أن رئيس أمان في ذلك الحين الجنرال زعيرا كان يرى بأن السادات لا يعتزم شن الحرب. ولم يكن رئيس الأركان مستعدا

للاعتماد فقط على تقديرات نوايا ولذلك أمر باتخاذ عدة إجراءات غير عادية بعد أن تواترت الإشارات التي تشير إلى قدرة المصريين على الهجوم. وتبين فيما بعد أن أزمة مايو لم تنته بالحرب. وبرز بعد الحرب من أضفوا على هذا الحدث أهمية كبرى. ووفق هذا التوجه لم يتخذ رئيس الأركان الخطوات المطلوبة في أكتوبر خوفًا من أن يتبين بأن الإصرار على تنفيذ هذه الخطوات والتي تتعارض مع تقديرات رئيس أمان هو أمر خاطئ وبالتالي سيؤدي إلى المساس بمكانته.

أن الحقائق والشواهد المختلفة لا تدعم الموقف الذي يضفي أهمية كبرى على الاعتبارات الشخصية فيما يتصل بالقرارات التي أصدرها رئيس الأركان في الأيام السابقة للسادس من أكتوبر. وكان الموقف الخاص برئيس الأركان، وكما ذكر ذلك نفسه ولمرات عديدة عشية يوم الغفران يقوم على ما يلي : " نظرًا لأنني لست معلقًا عسكريًا ولست عضوًا في الكنيست فيجب أن أفكر جيدًا وذلك إذا لم يكن لدي ما يثبت أنه لن يحدث أي هجوم[٢٩]. وفي الواقع فإن رئيس الأركان سبق رئيس أمان بأربع وعشرين ساعة واتخذ قرارًا بالعمل وفق أسوأ الاحتمالات. ونظم رئيس الأركان لقاء عمل في مكتبه في الرابع

من أكتوبر حيث قرر اتخاذ الخطوات الضرورية التي تتمشى مع الظروف الراهنة. وشملت تلك الخطوات ما يلي : " إلغاء كل الإجازات في الجبهتين الشمالية والجنوبية وإعلان حالة الاستعداد القصوى وإلغاء الإجازات في السلاح الجوي وتحريك اللواء السابع المدرع إلى الجهة الشمالية ونقل أطقم لواء مدرع آخر إلى سيناء جوًا وإعلان حالة الاستعداد " ج " (هي أعلى درجات الاستعداد والتي تسبق الإعلان عن حالة حرب) وإعلان حالة الاستعداد القصوى للاستدعاء العام لقوات الاحتياط.

وأُبلغ رئيس الوزراء في جلسة الحكومة في الخامس من أكتوبر بالخطوات التي اتخذها رئيس الأركان في الرابع من أكتوبر. واتفق الحاضرون في هذه الجلسة ومنهم أشخاص على دراية بالقضايا العسكرية (حضر هذه الجلسة بالإضافة إلى رئيس الأركان ورئيس أمان اثنان من رؤساء الأركان السابقين ديان وبرليف والجنرال احتياط يجآل آلون) في الرأي مع تقديرات القيادة العامة القائلة بأنه حتى لو اندلعت الحرب فإن الإجراءات التي اقترحها رئيس الأركان كافية إلى حين تعبئة قوات الاحتياط[٣٠].

وفي هذه المناسبة قام وزير الدفاع بإبلاغ رئيس الوزراء بتقدير موقف موجز عن احتمالات اندلاع الحرب. ولكن تقدير الموقف هذا كان يثق في كل الاستعدادات التي قام بها جيش الدفاع. وجاء في تقدير الموقف هذا " تُنفذ كل شئ فيما عدا استدعاء الاحتياط ". وليس لدى ديان أي قلق بشأن الجبهة المصرية أما بالنسبة لهضبة الجولان فإن القلق هناك هو شئ دائم. وعلم في هذه الأثناء بأن جميع الأماكن المخصصة للعبور في الجبهة الجنوبية قد شغلت بالجنود. وذكر ديان في وثيقة مفصلة بأن ما يحدث في الجانب المصري يشير إلى أن هذا هو نوع من انتشار القوات الذي يؤدي إلى عبور القناة بنسبة ١٠٠%[٣١].

وكما سبق أن ذكرنا فقد اعتبر ديان أن كل الخطوات التي اتخذها رئيس الأركان كافية: حيث أن قوات الاحتياط ستستخدم فقط بعد أن تبدأ الحرب. " لا يجب تحريك القوات إلا بعد أن يحدث شئ حقيقي "[٣٢]. وقبل ساعات قليلة من اندلاع الحرب في السادس من أكتوبر كرر ديان مواقفه السابقة والتي ترى بأنه لا يجب الاستجابة لمطلب رئيس الأركان بتعبئة كل فيالق الاحتياط المندرجة ضمن القوات المقاتلة قبل أن تبدأ الحرب

ذاتها وأنه يجب الاكتفاء بتعبئة فرقتين من فرق الاحتياط والتي يرى رئيس الأركان أن هناك حاجة إليها خلال فترة الصد (تفجرت في أعقاب الحرب علامات استغراب حول سبب عدم قيام رئيس الأركان بالتعبئة الفورية للفرقتين المشار إليهما وحيث لم يختلف بشأنهما في الرأي مع وزير الدفاع. بل قام رئيس الأركان بتأجيل التعبئة لعدة ساعات غالية وإلى أن عرض الأمر برمته على رئيس الوزراء لكي يتخذ فيه القرار).

وفي الواقع، بدأت الأجهزة العسكرية اعتباراً من الخامس من أكتوبر وخلال اليوم التالي تتصرف على ضوء الافتراض القائل بأن الحرب هي احتمال حقيقي رغم أن تقدير الموقف بشأن " النوايا " استمر يشير إلى تدني احتمالات اندلاعها. وبدءاً من هذا الموعد أخذوا يشعرون بتأثير تقديرات الموقف الخاص " بأمان " بشأن " النوايا " وبخاصة على المستوى السياسي. أما على المستوى العسكري فإن السمات الماثلة للعيان هي التي حددت أسلوب العمل. ومع ذلك فليس هناك شك في أن الاعتقاد بتدني احتمال اندلاع الحرب حتى إلى ما بعد الخامس من أكتوبر استمر يؤثر على المستوى العسكري سواء على مستوى الجو العام أو على مدى الإصرار الذي نفذت

بموجبه الاستعدادات للحرب على المستويات المختلفة. ويجب أن نفرق هنا بين العمل من خلال المعرفة وبين العمل من خلال الإيمان بالشيء.وفي كلتا الحالتين فإن العمل ينفذ ولكن ليس بنفس مستوي الاجتهاد. وقد اعتقد غالبية قادة جيش الدفاع بأنه رغم كل شيء فان السادات سيمتنع في اللحظة الأخيرة عن شن الحرب. وقد تجسد هذا الاعتقاد في عدم الاستعجال وربما أيضا في الاجتهاد غير الكافي الذي أتم به العمل العسكري عشية الحرب. كما أن اقتناع الكثيرين بأنه مهما تكن الظروف فليس أمام المصريين والسوريين أي فرص لتحقيق مكاسب عسكرية حقيقية، أدى إلي ظهور حالة الاسترخاء في تنفيذ الاستعدادات على المستويات المختلفة المتدنية.

ومن المسلمات الراسخة الأخرى والتي تتصل بالمفاجأة التي حدثت في حرب يوم الغفران تلك التي تري بأن الإنذار المبكر المخابراتي الذي قدم في صبيحة السادس من أكتوبر حدد الساعة ١٨,٠٠ موعدًا لبدء الحرب. ولكن الحرب بدأت فعلا قبل ذلك بأربع ساعات أي في الساعة ١٣,٥٨. ويتمسكون بأهداب تلك الحقيقة لتفسير الفشل العسكري الذي حدث في الأربع والعشرين ساعة الأولى للحرب وفي تفسير حقيقة أن

الوحدات النظامية في القيادة الجنوبية لم تكـــن منتشـــرة وفـــق التخطيط المسبق.

إن اختبار الحقائق يوضح صورة مغايرة للموقـــف، ففـــي الساعات المبكرة من صبيحة الخامس من أكتوبر أصدرت القيادة العامة أوامر بالدفع بلواء مدرع إضافي إلي سيناء، ونُقل جنـــود هذا اللواء جوا إلي الجنوب في ليلة الخـــامس والســـادس مـــن أكتوبر وتزودت بالدبابات الخاصة بالفرقة الدائمة وذلك قبـــل أن يبدأ الهجوم المصري. وتلقي القادة في ظهر الخامس من أكتوبـــر أوامر بالانتقال إلي درجة الاستعداد "ج" ثم تلقت القيادات أوامـــر في الساعة ٢٠٠٠ بالانتشار وفق خطة "آشور" التي تعني نشـــر لواء مدرع على امتداد القناة ونشر لواء آخر في المنطقة ما بيـــن القناة والممرات (كانت القيادة متواجدة في بـــير تمـــادا) ونشـــر اللواء الثالث كاحتياطي بالقرب من مقر قيادة الفرقة في رفيديـــم. وفي صبيحه يوم السبت السادس من أكتوبر تلقي قائد المنطقـــة الجنوبية تعليمات بنشر قواته وفقا للخطة " برج الحمـــام" التـــي تحولت كما ذكرنا إلى خطة دفاعية لامتصاص أي هجوم شـــامل. وكان من الضروري بموجب هذه الخطة استبدال رجال الاحتياط المتواجدين في المواقع بجنود نظاميين من الوحدات المختـــارة.

ولكن هذا لم يحدث. لماذا ؟ لا توجد إجابة مرضية لهذا السؤال. وعلي أي حال فإن الادعاء بأن القوات لم تستبدل بسبب الإنذار المبكر قصير المدى الذي تلقته تلك القوات هو ادعاء غير مقنع حيث كان في الإمكان نقل جنود إحدى الوحدات النظامية جوّا أو القيام بعملية استبدال الجنود في نفس الليلة مثلما حدث في ليلة السادس من أكتوبر حين نقل جنود اللواء المدرع إلي سيناء بطريق الجو.

والحقيقة هي أن اللوائين المدرعين اللذين كان يجب أن يتواجدا حسب الخطة في منطقة القنال مع بدء الحرب وتواجدا على مساحات بعيده منها، لم تغير أيضا من نتيجة المفاجأة. وحدث هذا نتيجة للأوامر التي أصدرها قائد القيادة الجنوبية الجنرال شموئيل جونين بعدم البدء في تصعيد الوضع في أعقاب التحرك المسبق الذي قامت به فرقة سيناء جنوب القناة. وعلي أية حال فعندما بدأ العبور انتشرت أقل من (١/٣) عدد الدبابات (وبصورة أدق ٩١ دبابة من بين ٣٠٠ دبابة) وفي تواجد محدود في المنطقة ما بين القناة وطريق العرض ومن بالوظه وحتى طريق مثلا. وبدلا من وجود ٤٢ دبابة كان يجب أن تُغطي حسب خطة " برج الحمام" الجبهة على امتداد حوالي ٦٠

كيلو مترا هي امتداد خط المياه- تواجدت على خط المياه مع بدء إطلاق النار ثلاث دبابات فقط. ويبدو أنه لم يكن لذلك أي تأثير حاسم على مستوي المجال الجوي حيث أن الإنذار المبكر المخابراتي حدد الساعة ١٨ موعدًا للهجوم المرتقب. ولم يؤثر ذلك على استعدادات السلاح الجوي الذي قام بأعمال الدورية في سماء الدولة اعتباراً من ساعات الظهر المبكرة. وحدث خلال جلسة الحكومة التي عقدت في الساعة ١٢٠٠ من نفس اليوم أن سأل وزير العدل يعقوب شمشون شابيرا: ماذا سيحدث إذا قدم العدو موعد بدء الحرب؟ ورد وزير الدفاع موشيه ديان بقوله " هذا أنسب سؤال أثير في جلسة الحكومة. إن السلاح الجوي يقوم بطلعات جوية منذ ساعات الظهر للتصدي لمثل هذا الاحتمال[٣٣] (دعي لحضور جلسة الحكومة التي عقدت في يوم الجمعة الخامس من أكتوبر في ساعات الظهر بالإضافة إلي الثلاثي : جولدا مئير موشية ديان ويسرائيل جاليلي، الوزراء الذين كانوا متواجدين في هذه الساعة في تل أبيب. وقد أُبلغت الدعوات لكل الوزراء لحضور جلسة الحكومة في السادس من أكتوبر تليفونيا وفي نفس اليوم اعتبارا من الساعة العاشرة صباحا على وجه التقريب. ونظرا لأن غالبية الوزراء لم يشتركوا في الجلسة التي

عقدت في اليوم السابق فإنهم لم يعلموا على الإطلاق بما حــدث إلي أن وصلوا إلي جلسة الحكومة في الســاعة الثانيــة عشــرة ظهرا. أي قبل أقل من ساعتين من اندلاع الحرب. وصدرت كل القرارات الهامة ومنها تلك الخاصة بحجم تعبئة قوات الاحتيــاط والنقاش الذي جري حول الهجوم المسبق بدون اشتراك هــؤلاء الوزراء وعن ذلك ذكر الوزير السابق موشية كول (في حديــث جري معه في (١٩٧٩/٧/٢٩) مــن أنــه عندمــا دق جــرس التليفون في الساعة العاشرة صباحا في ذات الصباح حيث طلــب منه سكرتير الحكومة المجيء إلي تل أبيب ســأله هــل الأمــر مستعجل وهل يجب أن يسافر بصوره مستعجلة ؟ هنا رد عليــه سكرتير الحكومة قائلا بان الأمر ليس على هذه العجلة كمــا أن نائب رئيس الوزراء في ذلك الحين يجآل آلون كان متواجدًا فــي نفس اليوم في كيبوتس جينوسر الذي ينتمي إليه. وعندما تلقــي نبأ الجلسة العاجلة للحكومــة طلــب أن يرســلوا إليــة طــائرة هليوكوبتر ولكن قيل له بأن أمامه الوقــت الكــافي ويســتطيع الوصول بسيارته (حدث ذلك في حوار جري مع يجــآل آلــون في ١٩٧٩/٦/٣١). وليس هناك شك في إن عدم تعبئة الاحتياط كما كان مخططًا له بسبب الإنذار المبكر قصير المــدى، فجّــر

مشاكل خطيرة على مستوي تسليح القوات وتزويـــد الوحــدات المختلفة بالعناصر البشرية المنقولة إليها على اســـتعجال، وادي ذلك في بعض الأحيان إلي الدفع بقوات إلي ساحة القتال قبـل أن تصل كل عناصر الدعم. ولكن الحقيقة المثيرة للاهتمام هي أنـــه رغم الإنذار المبكر قصير المدى فقد وصلت قوات الاحتياط إلـي جبهتي الحرب في الشمال والجنوب خلال ٢٤ ساعة مـــن بـدء الحرب، أي وصلت وفق المخطط الذي وضعه جيش الدفــاع- كيف حدث ذلك ؟. إن يوم الغفران هو اليوم الوحيد فـــي السـنة الذي يحوي كل المزايا التي تتوافر في تعبئـــة الاحتيـاط فـي ساعات المساء عن سائر أيام السنة الأخرى لأن غالبية ســـكان إسرائيل يكونون في منازلهم أو في المعابد. وعلي ذلـك أمكــن تعويض تأثير الإنذار المبكر قصير المدى على عملية اســتدعاء وحدات الاحتياط عن طريق الاستدعاء السريع بصورة خاصــة. وحقًا نفذ الاستدعاء بضعف السرعة التي وُضعت في الاعتبـــار في الخطط العادية. وفي السابع من أكتوبر كانت الفرقتان التـــي يقودهما شارون " وأدان" متواجدة في الجنوب وتواجدت الفرقــة التي يقودها موشية بيلد في الشمال وأن لم يكن تواجد هذه الفرقة يعتبر كاملا (ذكر يجآل آلون في حوار مع المؤلف جــري فـــي

١٩٧٩/٧/٣١ بأنه كان يري أن ما حدث هـــو" معجــزة يــوم الغفران" إذ لو شن العرب هذه الحرب في عيـــد آخــر أعتــاد الإسرائيليون فيه الإكثار من الرحلات والزيارات فـــإن النتــائج كانت ستصبح أشد خطورة) .

وفي النهاية يجب أن نضع علامة استفهام في نهاية الزعـم القائل بأنه لو وصل إنذار مبكر وبصورة مبكرة ولو قام جيـــش الدفاع بنشر كامل قواته لفشل المصريون والسوريون في تحقيـق هدفهم ولما وقعت الحرب. ويؤكد رئيـــس الأركـــان المصـــري السابق الفريق سعد الدين الشاذلي في مذكراته عن حـــرب يــوم الغفران أن تقديرات المخابرات المصرية كانت تري بأنه رغـــم خطة التمويه المصرية سيكون لدي الإسرائيليين إنذار مبكر لمدة ثلاثة أيام على الأقل بل ربما سيكون لديهم هذا الإنذار المبكـــر قبل اندلاع الحرب بخمسة عشر يوما. وحقا لـــم تعتــبر القيــادة العامة المصرية أن تحقيق المفاجأة هو شرط لتنفيذ الهجوم. وقــد استعد المصريون لعملية عبور دموية وقدروا أن تصل خسائرهم في مرحلة العبور واحتلال خط بارليف إلي حوالـــي ٢٠ ألــف شخص . وكانت المفاجأة التي حققوها مفاجئه لـــهم أيضــا[٣٤].

ونقول في النهاية بأننا درسنا سيناريوهات الحـــرب، والخطـط

والاستعدادات العملية والنظريات التي انتشرت داخل القيادة العامة لجيش الدفاع وداخل القيادة السياسية وفي بداية السبعينيات بشأن جوهر الحرب المرتقبة. كما درسنا العمليات التي تمت في الاثنتين والسبعين ساعة التي سبقت الحرب ذاتها. وتشير تلك الاختبارات التي قمنا بها بأنه اتبعت وسائل العمل، واتخذت الإجراءات التي اعتبرت في حينه كافية للتصدي للحرب. ونظرا لأن الاختبار الأساسي للإنذار المبكر يتمثل في أنه يمكن تقديمه في الفسحة الزمنية الكافية لاتخاذ الوسائل لتنفيذ أساليب العمل التي اعتبرت، وبصورة مسبقة، كافية لإحباط مخططات الطرف الذي يقوم بالمفاجأة وليس وفقا لما كان ينظر إليه بعد العمل على أنه البعد الزمني المطلوب. فإن وصف مفاجأة يوم الغفران على أساس أنها صنو للفشل في إعطاء الإنذار المبكر في الوقت المناسب هو وصف غير كاف.

ومع ذلك يستدل من الوصف الذي قدم حتى الآن، بأن مجال المفاجأة الأساسية في حرب يوم الغفران يتصل بالاكتشاف المفاجئ وربما "الصادم" للفجوة الواسعة جدا بين الصورة الخاصة عن الخصم وبين الصورة التي تكونت لدينا مقارنة بالخصم، وسنتناول ذلك بتفصيل أكبر فيما بعد.

الصعوبات التي واجهت الجيش الإسرائيلي في حرب أكتوبر

" لماذا يبررون ذلك بالفشل في تقديم الإنذار المبكر "

يبرر هنا السؤال التالي لماذا ترسخ الرأي القائل بأن الفشل العسكري لإسرائيل خلال المراحل الأولي للحرب ناجم عن الفشل في تقديم الإنذار المبكر؟

ترد الإجابة الحزينة على هذا السؤال من خلال تحليل ردود فعل الجمهور الإسرائيلي في السادس من أكتوبر ١٩٧٣، وهي ردود فعل تعبر عن حالة هلع مطلقة. فجنود الاحتياط بل وجنود الخدمة الدائمة الذين استدعوا في نفس اليوم إلي وحداتهم وبصورة مفاجئة رفضوا أن يصدقوا أنه ستندلع الحرب خلال ساعات معدودات كما قيل لهم. كما أن الجنود الذين تواجدوا في الدشم الموجودة على القناة لم يتصوروا أنهم سيكونون وفي نفس اليوم في خضم هجوم مصري ولم تعط أعمال المراقبة لما يحدث على مسافة ١٠٠ - ٢٠٠ متر. وحيث تتواجد مواقع الجنود

المصريين في الضفة الغربية لقناة السويس، أي إشارة إلى الحرب المقبلة. بل العكس هو الصحيح . فقد قيل بعد الحرب من أن الجنود المصريين شوهدوا صبيحة يوم الغفران وهم يجلسون في استرخاء على المرتفعات الرملية ويرتدون ملابسهم الداخلية. وتلقي جنود المواقع الإسرائيلية أول إنذار مبكر في السادس من أكتوبر فقط وبعد الساعة الثانية عشرة ظهرًا. وحتى هذا الإنذار المبكر لم يبشر بالحرب التي توشك على الاندلاع بعد أقل من ساعتين بل تحدث عن نيران المدفعية الثقيلة ونيران الدبابات التي ستنهمر في الساعة السادسة مساءً. ولم تكن قذائف المدفعية الثقيلة أو قذائف الدبابات بالحدث غير العادي أو غير المعروف في خط القناة رغم حالة الهدوء الطويلة التي استمرت منذ نهاية حرب الاستنزاف. وتلقي قائد الكتيبة التي انتشر رجالها في خط القناة كلمة السر "برج الحمام" (التي تعني التنفيذ الفوري للخطة الدفاعية) بعد أن بدأت الحرب. وبعد أن أخذت تذاع الأنباء الأولية عما يحدث في الجبهات في مساء السادس من أكتوبر، وبصورة أقوي، في صبيحة اليوم التالي، تعاظم الشعور بالهلع بين الجمهور الإسرائيلي وأضافت إلى مشاعر

عدم التصديق السابقة - بأن الحرب ستندلع - مشـــاعر الــهلع بسبب المكاسب التي حققها السوريون والمصريون.

لقد أدت التصريحات العلنية التـــي أدلــت بــها عنــاصر عسكرية وقيادات سياسية كبري في إسرائيل منذ انتهاء حـــرب الاستنزاف و حتى اندلاع حرب يــوم الغفـران حـول القـوة الاستراتيجية الضاربة لإسرائيل إلي رسم صـــورة طيبـــة عـن وضع الأمن القومي. وخلقت التصريحات الواثقة داخــل الــرأي العام الإسرائيلي مشاعر قوية بالثقة في قدرة الردع لدي جيـــش الدفاع والتي ستلغي إمكانية أن تتجرأ الدول العربية على تنفيـــذ تهديداتها بالدخول في جولة عسكرية أخــــري ضـــد إســرائيل. وظهرت إذن " مسلمات " جماهيرية حول تدني احتمال انــــدلاع الحرب وحول قدرة الجيش الإسرائيلي على ضــــرب الجيــوش العربية وإذا حاولت القيام بمغامرة عسكرية فســـتتلقى الضربـــة القاضية.

ويمكن أن نفسر حالة الهلع التي حدثت بأنها ناجمة عــــن التبدد المفاجئ للمسلمات المتوارثة. فهذه الفجوة بيـــن التوقعــات وبين الأحداث الفعلية فجرت الدافع النفسي للعثور على ســبب أو عنصر نحمله مسؤولية ما حدث. وكان السبب الأول الذي ســيق

كتفسير للفجوة بين التوقعات وبين الواقع الفعلي هو عدم تلقي الإنذار المبكر في الموعد المناسب . ولكن الفحص الدقيق – من جانبنا– يجب أن يركز على تأثير الإنذار المبكر قصير المدى على المستويات العليا التي تتخذ القرارات السياسية والعسكرية وهل يمكن أن ننسب ما أصابهم من هلع إلى الفشل في تقديم الإنذار المبكر في أوانه ؟ الرد على ذلك هو بالسلب. بل إن العكس هو الصحيح. فمصطلحات "حالة الهلع" والفشل المخابراتي " لم ترد على ألسنتهم على الإطلاق خلال الأيام الأولي للحرب. والمثال على ذلك أن القيادات الأمنية لم تُعلق وخلال ساعات ما بعد ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وحيث كان الوضع في ساحات القتال لا زال غامضا، أي أهمية حاسمة على الإنذار المبكر قصير المدى وعلى نتائجه. وتؤكد ذلك الشهادة التالية: " بعد فترة ما بين اندلاع الحرب وخلال الأحاديث المختلفة، لم يظهر وزير الدفاع في صورة الإنسان الذي تعرض لمفاجأة. وقد ذكر ديان ما يلي : " أن عدد الدبابات التي لدينا اليوم في سيناء والتفوق الجوي لدينا هي أشياء تكفي لكي لا نشعر بالقلق على نتائج الحرب " وأضاف ديان أيضا " لا أستطيع القول بأنني سعيد من الوضع الحالي ولكنني لست قلقا

أيضا مما حدث في سيناء "، ورغم أن النسبة العددية للدبابات في الشمال أسوأ مما هو في الجنوب إلا أن ديان قال : " بصورة عامة، لقد خسر السوريون الحرب "[٣٥].

وذكر رئيس الأركان في الثامن من أكتوبر في مؤتمر صحفي ما يلي : " لقد اندلعت هذه الحرب بمبادرة من جانب مصر وسوريا. ولقد بدأت الحرب بهجوم منسق ومتزامن للجيشين المصري والسوري. وقد نظمنا صفوفنا عن طريق الجيش النظامي وكنا في حالة تأهب قصوى[٣٦].

لقد تبلور لدي القيادة العليا الإيمان بالتأثير الحاسم، للفشل المخابراتي في تقديم الإنذار المبكر، على نتائج الحرب. ولكن في مرحلة متأخرة كثيرًا أو بعد أن اتضحت حقيقة الوضع في ساحات القتال، بدأو يبحثون على تفسيرات للفشل الذي حدث وهم تحت تأثير حالة الهلع التي سيطرت على الزعامة السياسية والعسكرية في إسرائيل واعتبر تفسير الفشل المخابراتي في تقديم الإنذار المبكر هو التفسير المقبول للفشل العسكري.(يجب أن نؤكد على أننا لا نريد الادعاء بأن تبرير الصعوبات والفشل في ساحات القتال بالفشل في تقديم إنذار مبكر قد جاء وعن قصد

كحل مكيافيللي يستهدف تخفيف حدة النقد الجماهيري عن طريق تحويل الغضب الشعبي صوب المخابرات).

هوامش الفصل الأول

(١) تقرير لجنة أجرانات عن حرب يوم الغفران، إصدار عام عوفيد، تل أبيب ١٩٧٥ ص١٩.

(٢) في لقاء جري مع دوف جولد شتاين، نشر في معاريف بتاريخ ١٩٧٣/١١/٢

(٣) انظر أ. بن تسيفي : "حول قضية المفاجأة - تحليل مقارن لأربعة من الأحداث" المشاكل الدولية، المجلد الرابع عشر رقم ٣ - ٤ (خريف ١٩٧٥) الصفحات من ٧-٣٠. انظر أيضًا :

A. Ben-Zvi, " Hindsight and Foresight : A Conceptual Framework for the Analysis of Surprise Attacks, " World Politics, 28 (April 1976), pp. 381-395; M.I. Handle, Perception , Deception and Surprise : The Case of Yom Kippur War, Jerusalem Papers on Peace Problems, No 19, The Hebrew University of Jerusalem (1976); pp. 348-380.

(4) Roberta Wohlstetter, Pearl Harbor - Warning and Decision,

Stanford University Press (Stanford, 1962).

(٥) أوصاف مشابهة ولكن غير متطابقة انظر :

T.G. Belden, " Indications : Warning and Crisis Operations ", International Studies Quarterly, Vol. 21, no. 1 (March 1977), pp. 181-198; K. Brodin, " Surprise Attack : The Case of Sweden, " The Journal of Strategic Studies, Vol. 1, no. 1 (May 1978), pp. 98-110.

(٦) اصطدمت خلال كتابة الفصول الخاصة بحرب يوم الغفران بمشكلة خطيرة تتصل بالاستشهاد بالمصادر العلمية. فجزء من المعلومات الخاصة بالحرب لم يكشف النقاب عنه بعد لأسباب أمنية. كما أن بعض المواد والتي تكون أحيانا ذات قيمة عليا لدي دراسة الظاهرة موضع البحث، وردت الإشارة إليها في كتب ومقالات ذات طبيعة إشكالية كتبها أشخاص تولوا مناصب رئيسية خلال الحرب. وأحيانا استمد بعض المؤلفين معلومات وضعها تحت تصرفهم هؤلاء الأشخاص. ومن الطبيعي أن تميل بعض هذه المصادر إلي إبراز

حقائق معينة وتجاهل أخرى. ومن بين تلك الكتب التي يجب الإشارة إليها، الكتاب الذي وصفه حانوخ برطوف تحت عنوان" دادو- ٤٨ عاما وعشرون يوما والذي صدر عن مكتبة معاريف - تل أبيب ١٩٧٨. ويبدو أن المؤلف اطلع على المضابط والتسجيلات الخاصة بجلسات القيادة العامة وعلى مواد أخرى بينها مصادر حساسة. وإذا كان في الوسع التحفظ على بعض الاستنتاجات الواردة في كتاب برطوف وعلى طريق اختياره للاستشهادات الأصلية الواردة في كتابه، فإن تلك الاستشهادات ذات قيمة عليا لأي باحث يتصدى بالدراسة لحرب يوم الغفران. وقد استعنت في حالات كثيرة بهذا الكتاب للإشارة إلى المصادر التي عاد إليها. كما استعنت بسلسلة طويلة من اللقاءات مع وزراء خدموا في الحكومة عشية حرب يوم الغفران ومع ضباط كبار في جيش الدفاع ومع مسؤليين في أجهزة المخابرات في توضيح عدة نقاط وردت في الكتاب . ودعمت

هذه الاستشهادات، والتي لا يمكن في أغلب الأحوال نشر مضامينها الكاملة للقراء أو إضافة تفاصيل لم تنشر بعد، من مصداقية الفقرات المنقولة عن كتاب برطوف أو من كتب ومقالات أخرى.

(٧) لمزيد من التفاصيل عن وصف المناورة انظر كتاب حانوخ برطوف. الجزء الأول الصفحات من ٢١٦-٢١٩.

(٨) المرجع السابق ص٢٥٧.

(٩) عن جوهر خطة " برج الحمام" وإدراجها ضمن خطة " سيلع " انظر أفرهام أدان (برن) في كتابه " على ضفتي قناة السويس " إصدار عيدانيم - القدس١٩٧٩ ص٥٤.

(١٠) تقرير لجنة اجرانات ص٤٠.

(١١) المرجع السابق ص٤٢-ص٤٣.

(١٢) برطوف، الجزء الثاني ص٣١.

(١٣) المرجع السابق ص١٤.

(١٤) عن تفاصيل ما ورد في الوثيقة انظر : برطوف، الجزء الثاني ص٣٠٥.

(١٥) هآرتس ١٩٧٣/١٢/٣٠ .

(١٦) انظر شلومو نكديمون، يديعوت آحرونوت ١٩٧٤/٦/١٢ وحانوخ برطوف، الجزء الأول ص٣٠٦.

(١٧) شلومو نكديمون، يديعوت آحرونوت ١٩٧٤/٧/١٢.

(١٨) يمكن أن نضرب مثالا لما ذكره رئيس الأركان في مناقشات جرت داخل القيادة العامة عشية رأس السنة من أن هناك خطرا يتمثل في أن يستغل السوريون ثلاثة أيام العيد للقيام بعمل عسكري في هضبة الجولان. وذكر رئيس الأركان بأنه في ظل مثل هذه الظروف سيكون لإسرائيل خلال فترة العيد ١٠٠ دبابة في مواجهة٨٠٠ دبابة وهذا يكفي في نظر برطوف الجزء الأول ص ٢٩٤.

(١٩) المرجع السابق ص ٣٢٣.

(٢٠) دافار ١٩٧٣/١/٢٦.

(٢١) انظر برطوف الجزء الأول ص٢٤٣.

(٢٢) في لقاء مـــع دوف جولـــد شـــتاين، معـــاريف ١٩٧٣/١٢/٩.

(٢٣) برطوف، الجزء الأول ص ٢٣٦.

(٢٤) المرجع السابق ص٢٢٣.

(٢٥) العميد دوف تمـــاري " حـــرب يـــوم الغفـــران: المفاهيم، التقديرات العامة والاستنتاجات" إصـــدار معراخوت الأعداد مـــن ٢٧٦ - ٢٧٧. أكتوبـــر نوفمبر ١٩٨٠ الصفحات من ١١-١٦.

(٢٦) استنادا إلى حوار مع الجنرال يسرائيل تل خـــلال كتابة هذه الدراسة جري في ١٩٧٩/٤/٢٣.

(٢٧) استنادا إلى حوار جري مع الجـــنرال احتيـــاط اهرون ياريف في أغسطس ١٩٧٩.

(٢٨) برطوف، الجزء الأول الصفحـــات مـــن ٣١٤- ٣١٦.

(٢٩) المرجع السابق ص٣١٥.

(٣٠) انظر المرجع السابق الصفحات من ٣١٨-٣١٩ وكذلك انظر: موشية ديان- علامات على الطريق - السيرة الذاتية، إصدار عيدانيم - دافار القدس ١٩٦٧ الصفحات من ٥٧٣-٥٧٤ وكذلك انظر جولدا منير : " حياتي" ، إصدار معاريف تل أبيب ١٩٧٥ الصفحات من ٣٠٧-٣٠٨ .

(٣١) شلومو نكديمون ، يديعوت آحرونوت ٧٤/٧/١٩.

(٣٢) برطوف، الجزء الأول ص٣١٨ : "ما معني كلمة" هل يحرك القوات ؟ هل المقصود تحريك قوات نظامية أم تحريك قوات الاحتياط ؟ وقد أوضح برطوف هذه النقطة في كتابه (ص ٣٢٠) حين قال : " لا يجب تعبئة قوات الاحتياط قبل أن يبدأوا الحرب".

(٣٣) شلومو نكديمون، يديعوت آحرونوت ١٩٧٤/٨/٢.

(٣٤) فريق سعد الدين الشاذلي: حرب أكتوبر- مذكرات" إصدار الوطن العربي، باريس ١٩٨٠

ص ٢١،٢٠ وانظر أيضا بار شمونيل - حـــرب يوم الغفران- تقصير المخابرات الإسرائيلية فـــي نظر العرب" إصدار قسم علوم الدولة في جامعـــة تل أبيب ١٩٨١.

(٣٥) شـــلومو نكديمـــون، يديعـــوت آحرونـــوت ١٩٧٤/٨/٢.

(٣٦) معاريف ١٩٧٣/١٠/٩.

الفصل الثاني

نوح وبستر ودعابته عن

المفاجأة وحالة الهلع

إن اعتبار مفاجأة حرب يوم الغفران صنوا للفشل في تقديم الإنذار المبكر هو أمر لا يستقيم مع الحقائق. ولكن مشاعر عدم الارتياح لا تنبع أساسا من عدم اتساق ذلك مع الحقيقة. فالعيب الأساسي في هذا التبرير لا ينبع مما يوجد فيه بل ينبع مما لا يوجد فيه.

إن اعتبار الحرب صنوا للفشل في تقديم الإنذار المبكر هو وصف ضيق للغاية لتلك الظاهرة وفيه تجاهل للجوانب الواسعة وللطبقات العميقة المتراكمة للمفاجأة التي ألمت بالإسرائيليين في حرب يوم الغفران. إن هذا الوصف يركز على الأمور الآنية ويتجاهل التطورات العميقة للظاهرة والتي يجب البحث عن جذورها قبل فترة طويلة من وقوع الفشل في الإنذار المبكر ويتجاهل الأحداث التي وقعت فيما بعد والتي لا تعتبر نتيجة مباشرة لهذا الفشل [١].

إن هذا الربط يتجاهل أن وقوع المفاجأة يرمز منذ البداية إلى مسيرة طويلة، معقدة وذات طبيعة إشكالية تتصل بالكشف الذاتي عن سلسلة من عدم الملاءمة بين النظريات الأساسية للامة وبين الواقع. إن ربط المفاجأة بالفشل في تقديم الإنذار المبكر يقوم على الشعور بأن الصدمة سببها المفاجأة في

التوقيت، في التوجه العام، في تحديد موضع الشيء، في نظام القوات وفي الخطوات الأخرى التي بادر بها الطرف الخارجي أي الخصم. وجاءت صدمة يوم الغفران أساسا، نتيجة لاكتشاف الإسرائيليين للصور الذاتية الخاطئة عن أنفسهم وعن قدراتهم العسكرية والاجتماعية وعن قدراتهم المعنوية ولكن بقدر معين.

وبدلا من الاتجاه السائد والذي يربط المفاجأة بالفشل في تقديم الإنذار المبكر سأقترح التفرقة بين نوعين مختلفين من المفاجآت وسنطلق عليهما اسم " المفاجآت قصيرة المدى " (الآنية) والمفاجآت الأساسية ". وعلينا لكي نوضح هذا التمييز بين النوعين أن نصنع ما يشبه الفاصل الزمني عند وصف المفاجأة التي حدثت في حرب يوم الغفران.

يحكون عن " نوح وبستر " مؤلف القاموس الشهير الذي يحمل اسمه، أنه عاد إلى منزله ذات يوم قبل موعد عودته المعتاد حيث وجد زوجته في أحضان خادم المنزل. فقالت له الزوجة " لقد فاجأتني " فرد عليها وبستر قائلاً : " وأنت أصبتني بالهلع "[٢]. لماذا استخدم وبستر عند وصف تأثير هذا الوضع المربك الذي وجد نفسه فيه مصطلحا يختلف عن ذلك الذي استخدمته زوجته ؟ يبدو ظاهريا أن الاثنين وجدا أنفسهما في

وضع مشابه وهو تعرضهما للمفاجأة. ولكن عند الفحص الأولى نشعر أن المفاجأة التي لحقت بكل واحد منهما تختلف في النوع.

وقد حظيت التفرقة بين "حالة الهلع" وحالة المفاجأة" بالاهتمام المحدود من جانب اللغة والأدب[٣]، وحظيت بما هو أقل من ذلك من جانب المجالات المختلفة لعلوم المجتمع. ويولى هذا الكتاب الذي يتناول قضية " المفاجأة الاستراتيجية " اهتماما كبيرا للتفريق بين حالتي "المفاجأة ". وعلى ذلك وبرغم وجود اختلافات معينة بين المفاجآت الاستراتيجية التي تتناول المستوى القومي وبين المفاجأة التي اصطدم بها السيد وبستر والتي تنتمي إلى المستوى الشخصي فان هذه التفرقة توفر لنا الأداة الأولية المناسبة لتحقيق هذا التوضيح البسيط والاستيعاب الكافي للتفرقة بين " المفاجأة " وحالة " الهلع " وتتصل التفرقة الأولى بين "الهلع" و"المفاجأة" بالقوة المختلفة لتأثير كل حالة "مفاجأة" على الطرف الذي تعرّض لهذه المفاجأة. فينظر إلى حالة " الهلع " باعتبارها ذات قوة تأثير تختلف عن تلك الخاصة بحالة " المفاجأة ". وهكذا نرى ان تأثير الوضع الذي ظهر أمام وبستر بصورة مفاجئة يحوى في داخله أساسا دافعا للشعور بالصدمة

وقد تبددت فجأة الصورة الذاتية لدى وبستر عن نفسه وعن منظومة علاقاته مع زوجته بصورة قوية لا تقبل التأويل.

ولكن لم يحدث ذلك لدى السيدة وبستر حقا. شعرت بالمفاجأة في أعقاب ما حدث، ولكن منظومة الصورة الخاصة بها عن نفسها وعن البيئة المحيطة بها وعن زوجها وعن العلاقات القائمة بينهما لم تهتز بقوة. وبالإضافة إلى ذلك، يمكن أن نفترض أنه حتى لو اتخذت السيدة وبستر جميع الخطوات التي تعتبرها

ضرورية لمنع ما حدث، فقد كان عليها أن تفترض بأن هناك احتمالا بأن يبرز أي "عطل ما" يؤدى إن عاجلا أو آجلا- ومن الأفضل لها أن يحدث ذلك في وقت متأخر بقدر الإمكان - إلى اكتشاف هذه الخيانة.

إن المشاعر التي انتابت السيدة وبستر تشبه بداية تلك التي يشعر بها السائق عندما تفقد فرامل سيارته مفعولها فجأة خلال السفر. ومن شبه المؤكد أن تنتاب هذا السائق حالة من المفاجأة والهلع، رغم انه كان عليه من الناحية العقلانية أن يدرك احتمال حدوث عطب في "الفرامل". ونحن ندرك بصورة عامة إمكانية حدوث "أعطال" مختلفة في الطبيعة وفي الأجهزة الفنية

والاجتماعية والتنظيمية. ومع ذلك نشعر بالمفاجأة عند حـــدوث أعطال وأحيانا نشعر بحالة هلع.

شعور السيدة وبستر بحالة من الهلع إزاء المفاجـأة التــي تعرضت لها يختلف إذن عن شعور زوجها وكذلك يختلف فــي قوته، خاصة وأنه كان في مقدور الزوجة أن تنسب هذا "العطـل" الذي حدث إلى سبب لا يرتبط بها. وفي المقـــابل فــإن شــعور الزوج بهلع، نابع من حقيقة أن ما حدث يجب أن يفجــر داخلــه أفكاراً " ليس " فقط تجاه الخادم أو تجاه زوجتــه أو تجــاه أيــة أسباب خارجية أخرى. فالوقوف على مغـــزى الظـاهرة غــير ممكن من جانبه إلا عن طريق إعادة دراســة وتقييـم المفــاهيم الخاصة به تجاه ذاته.

والتفرقة الثانية بين المفاجأة والهلع تتصل بالقضايا التـــي كشف الحدث إزاءها عن وجود عدم اتساق بيــن الافتراضــات المختلفة تجاه الواقع وبين الواقع ذاته. ويمكـــن تحديـد مجــال المفاجأة بكل دقة. وفي ومقابل ذلك فــإن حالــة الــهلع تشــمل القضايا التي يكون مجال وقوعها واسعا. وبالنسبة للبعد الزمنــي فإن مغزى هذه القضايا لا يشمل فقط الحدث اللحظي بل يشــمل، وربما بصورة أساسية، طبقات اكثر عمقا وخطـــوات مســتمرة

بصورة أكبر، يعتبر الكشف عنها هاما في فـــهم الظـــاهرة. أذن فإن فهم حالة الهلع، مشروط بتفهم أوســـــط وأعمــق للأمــور. ويمكننا أن نفترض بأن الحدث الذي أحدث حالة هلع لدى الســيد وبستر كشف فقط قمة "الجبل الجليدي" لمجموعـــــة مــن عــدم المدارك المحيطة بهذا الحدث واستمرت حالـــــة "الإدراك" تلــك لفترة زمنية أطول، وشملت مجموعة أوسع من القضايـــا التـــي تفصل بين الحدث وبين البيئة المحيطة به أكثر من تلك القضايـا التي أدرجت ضمن "مساحة" الحدث ذاته.

لقد كشف الحدث عن طبقات أعمق، وربما بصورة اكـــثر استمرارا، لاهتزاز العلاقات والإخلاص بين الزوجين.

وهناك مجال تفرقة آخر بين المفاجـــآت وحــالات الـــهلع يتمثل في " القيمة التمييزية " النسبية المختلفـــة للمعلومـــة التـــي تشمل كل الأوضاع المشار إليها. فالمفاجأة وحالة الهلع تكشـــفان عن وضعين مختلفين من ناحية قيمة المعلومة كعنصـــــر يـــؤدى الكشف عنه في الوقت المناسب إلى منع وقـــوع الحـــدث غـــير المرغوب فيه. وكان ينقص السيدة وبستر توافـــــر جـــزء مـــن معلومة واحدة فقط لكي تمنع وقوع المفاجأة وهـــــى معرفـــة أن زوجها سيبكر في ذات اليوم في العودة إلى منزله. أي أن هـــذا

الجزء المفقود من المعلومة كان بالنسبة لها ذا قـــدرة تمييزيـــة عالية. وليس الأمر كذلك بالنسبة للسيد وبستر. فالقيمة التمييزيـــة لجزئيات المعلومة التي تتناول "تصوره" لمنظومة علاقاتـــه مـــع زوجته كانت اقل من أن تستطيع أن تكون المفتاح لفهم الواقـــع الخاص بذات اللحظة. ويمكن أن نفترض أنه برزت قبـــل هـــذا الحدث سمات أخرى وهي حقا كانت بارزة بدرجة أقل، يمكـــن عن طريقها للمتابع للأمور عن كثب أن يقـــف علـــى الصـــورة الحقيقية للعلاقات بين الزوجين. وعلم النفس الإدراكـــى زاخـــر بالشواهد التي تؤكد أن البشر يميلون إلى تفسير المعلومة التـــي تقبل عدة تفسيرات مختلفة بصورة تلائـــم تصورهـــم للأمـــور، ويميلون كذلك إلى التقليل أو حتـــى تجـــاهل القيمـــة التمييزيـــة للمعلومة التي تتعارض مع هذا التصور.

وبعد أن وقع الحدث يمكن أن نفترض أن الســـيد وبســـتر تبنى تفسيرا يساعده على فهم هذا الحدث بدون الحاجة إلى القيـام بخطوة مؤلمة تتمثل في الاعتراف بوجود "تصور " خاطئ مـــن جانبه وان هذا التصور قد تغير. ومن الأمثلة على ذلك أنه كـــان يمكنه إلقاء الذنب على الخادم الـــذي "تـــهجم" علـــى زوجتـــه " الساذجة ". وإذا تبين له بصورة محددة لا تقبل التأويل، اســـتحالة

إلقاء الذنب، وبصورة أساسية، على الخادم فربما يحاول تفسير الحدث بأنه راجع إلى "ضعف لحظي" غير ذي مغزى من جانب زوجته. وبمفاهيم أوسع يمكننا القول بأن هذا الميل من جانب السيد وبستر للبحث عن أسباب خارجية وأخرى ناجمة عن الصدفة فقط، يؤكد الميل الإنساني للتصرف في حالات "الهلع" كما لو أن الأمر يتصل بحالات "مفاجأة" (توفر الدعابة المنسوبة إلى وبستر للباحث فرصة مثيرة للاهتمام لدراسة الاختلافات النفسية في التصرفات الإنسانية في حالات "المفاجأة" و "الهلع" ولكن الذي يثير اهتمامنا بهذه الدعابة هو ما يتصل بإبراز التفرقة بين المفاجأة والهلع من الناحية النظرية والمعرفية وذلك كتعبير عن حدوث جوانب فشل في نوعين مختلفين من الفهم الإنساني للبيئة المحيطة). وتبنى السيد وبستر لهذه التفسيرات حتى بعد عدم قدرته على تجاهل وقوع هذا الحدث المربك، يشير إلى أن حالات " الهلع " تختلف عن حالات " المفاجأة " فيما يتصل أيضا بأسلوب الاستفادة من التجربة بعد أن وقعت. هناك نهجان مختلفان لدراسة القضايا المختلفة، النهج الأول هو دراسة "المضمون" Content Learning. والنهج الأخر هو الدراسة البنيوية Structural Learning . فالدراسة المضمونية

المستمدة من التجربة تحسن من فهم الدارس للموضوع المثـــار والذي حصل عنه على " إعادة تـــأكيد " مـــن الواقـــع. ووفـق النموذج المطروح أمامنا فإن الحدث دفع إلى الأمـــام وبســرعة كبيرة عملية الدراسة التي قام بها الســيد وبســتر حــول مــدى إخلاص زوجته له. أما الدراسة البنيوية فهى دراسة تتبـــع مــن التجربة وتشمل تفهم بنية المشكلة بصورة بسيطة. ومثـــل هــذه الدراسة تحسن من فهم الدارس للحالات الأخـــرى ذات البنيـــة الإشكالية المشابهة. وبالنسبة للسيد وبستر فإن الحدث فـــي حــد ذاته لا يحوى في داخله طاقات للفـــهم والإدراك بمـــا يضمــن تقليص احتمالات وقوعه في حالات هلع مشابهة في المســـتقبل. والدراسة البنيوية التي تعقب حدوث " الهلع " مشـــروطة بفـــهم مختلف للبنية المحيطة، فهم للقضايا والأبعاد التي تخـــرج عــن مجال الحدث. إن الحدث ذاته يمكن ان يفجر مثل هذه المســيرة. ولكن المسيرة ذاتها لا تتجسد في الحـــدث ولا تضمـــن نجاحـــه بصورة عامة.

إن الدراسة البنيوية التي تأتى في أعقاب حالات " الـــهلع " هي مسيرة مستمرة يمكن للطرف الذي تعرض لـــهذا الـــهلع أن ينكشف أمام حالات هلع أخرى.

والجانب الأكبر من حالات "الهلع" تلك يمكن أن تحدث ولكن ليس بالذات من خلال الارتباط بأحداث خارجية، ولكن تحدث كجزء من عملية اكتشاف جديدة لحالات عدم المواءمة بين رؤية الدارس لذاته وللبيئة المحيطة بها وبين الواقع. والدراسة البنيوية التي تأتى في أعقاب حالات الهلع ليست مسيرة متصلة، بل هى دراسة تستمر، وبدرجات قوة مختلفة، خلال المراحل المختلفة للمسيرة. أما المدارك فتتحقق على موجات متتابعة، وموجات المدارك المتأخرة التي تشمل الظاهرة تتصل بالطبقات الأكثر عمقا ومنها إلى المستويات الأعلى والتي تتجاوز المستويات التي برزت في الحدث ذاته. وسنطلق على هذه المدارك اسم "مدارك أساسية"، أما المدارك التي يمكن التوصل إليها بصورة عامة عن طريق الدراسة الموضوعية فنطلق عليها اسم " المدارك الآنية" (قصيرة المدى).

وتكشف المفاجآت عن جوانب فشل في مستوى " المدارك الآنية ". وتكشف حالات الهلع عن جوانب الفشل في مستوى : المدارك الأساسية ". والفرق بين هذين المستويين من المدارك يتمثل في مساحة الحدث " ذاته. ويمكن عن طريق معرفة " القيمة التمييزية النسبية للمعلومة وعن طريق القدرة على

الدارسة اعتمادا على التجربة، خفض احتمالات الوقوع في مثل هده المفاجآت في المستقبل. وتواجهنا على مستوى المدارك الآنية، مشاكل تتسم بمساحة أحداث محددة وضيقة، كما تتوافر حولها معلومات ذات قيمة تمييرية أعلى نسبيا بالإضافة إلى قدرة افضل نسبيا للاستفادة من التجربة كما نواجه على مستوى المدارك الأساسية مشاكل تتسم بمساحة أحداث أوسع وأكثر ديناميكية، ولا تتوافر حولها معلومات ذات قدرة تميزية أعلى نسبيا ومسيرة الاستفادة من الاصطدام بالواقع تكون اصعب وأكثر تعقيداً.

وسنطلق على الاكتشاف المفاجئ لجوانب الفشل على مستوى المدارك الآنية اسم مفاجأة انية" وسنطلق على الاكتشاف المفاجئ لعدم الموائمة بين المدارك الأساسية وبين الواقع اسم "الهلع الأساسي (وبذلك أوجدت صلة على مستوى المصطلحات بين التمييز القائم على مستوى المدارك الآنية ومستوى المدارك الأساسية وبين المفاجأة والهلع. ولتوحيد المصطلح سنستخدم من الآن فصاعدا مصطلحات " المفاجأة قصيرة المدى (الآنية) والمفاجأة الأساسيه (طويلة المدى) بدلا من مصطلحات مفاجأة وهلع وان كان مصطلحا الهلع والهلع

الإستراتيجي سيظهران بين الحين والأخر كبديلين لمصطلح " المفاجأة الأساسية " ولكن في أحوال معينة). إن عدم التمييز بين تواجد هاتين الظاهرتين يخلق الميل الى محاولة التغلب على المشاكل التي تكشف عنها المفاجأة الأساسية، بنفس الوسائل التي تتبع في أعقاب حدوث المفاجأة قصيرة المدى (الآنية). وهذا ميل مميز ليس فقط على مستوى الفرد بل أيضا على المستوى التنظيمي والقومي. وسنطلق على المفاجآت الأساسية وفق هذا التدرج اسم "المفاجآت الاستراتيجية (لا نقصد بالاستراتيجية تلك التي تتدرج بالذات ضمن المفهوم العسكري الإستراتيجي، بل نقصد مجال المقابلة بين مكونات القوة داخل الأمن القومي وبين المكونات الأخرى من سياسات خارجية واقتصاد وتكنولوجيا وخلافه). ولكن قبل أن نركز حديثنا على هذا المستوى يجب أن نستعرض هذه الظاهرة على المستوى التنظيمي بشيء من الإيجاز.

مفاجآت آنية وأخري أساسية على المستوى التنظيمي

شهدت الأنظمة التنظيمية الإدارية والأدوات الكفيلة بالتصدي لظاهرة المفاجأة الآنية تطويرا أو تحسناً منذ الحرب العالمية الثانية وبخاصة عن طريق جمع اكبر قدر من

المعلومات الدقيقة حول تصرفات تلك الأنظمة لتحديد الأخطار والخروج عما كان مخططا له. كما طورت الإجراءات التي لا تساعد الأنظمة التنظيمية على استغلال الحالات التي لا يتوقع حدوث مفاجآت فيها سواء من أجل الاستفادة مما يحدث أو التحصن ضد أي مفاجآت مشابهة في المستقبل. وفي مقابل ذلك فان هناك فهما خاطئا للغاية لجوهر وأسباب تفجر المفاجآت الأساسية على المستوى التنظيمي والتي لم تُتخذ إجراءات لمنع وقوعها. وتصبح قدرة الأطراف التي تعرضت للمفاجأة على تمييز نوع المفاجأة التي وقعت لهم وقدرتهم أيضا على الاستفادة من المفاجآت الأساسية لمنع وقوع مفاجآت أخرى معقدة بصورة أكبر ويرتبط ذلك بأنظمة اكثر تعقيدا. فالهزة المرتبطة بالمفاجأة الأساسية يجرى التخفيف من حدتها داخل الأجهزة التنظيمية لان "الأنا" التنظيمية هى شيء غير محسوس للغاية وكذلك لأنه في الإمكان إلقاء مسئولية الحدث الذي تسبب في حالة الهلع على وحدات فرعية داخل التنظيم. وبذلك يمكن إعفاء التنظيم كله من تحمل المسئولية الشاملة. كما أن التغييرات التي تحدث على مستوى الوحدات الدنيا داخل التنظيم في أعقاب حدوث مفاجآت أساسية، تقدم الوهم بان ما حدث في سبيله إلى التعديل. وبذلك

يضعف الدافع لإعادة دراسة مجموعة الافتراضات الأساسية لدى قمة الهرم التنظيمي. وهذه الفجوة بالذات في قدرة المنظمات على التصدي لنوعين من المفاجآت، تدعم الميل إلى التصدي للمفاجآت الأساسية ضمن الإطار الفكري وعن طريق استخدام الأدوات التي أثبتت فعاليتها في التقليل من احتمالات حدوث مفاجآت آنية. وطورت داخل الأجهزة التنظيمية إذن الأدوات والإجراءات التي جعلت منها هدفا للمفاجآت الآنية ولكن بصورة أقل من المفاجآت التي يتعرض لها الفرد.

وفي مقابل ذلك فإن الأجهزة التنظيمية تكون أقل تحصينا أمام المفاجآت الأساسية وتكون أقل قدرة على بلورة صور أساسية جديدة (وهو ما يسمى في بعض الأحيان "تصور عام") بعد وقوع تلك المفاجآت. ونظرا لان الأجهزة التنظيمية تكون معرضة للمفاجأة الأساسية فليس من المحتم أن تتحسن قدرتها على منع حدوث مفاجآت أساسية أخري. وفي أعقاب حدوث المفاجآت الأساسية فإن الأجهزة التنظيمية تميل إلى تنفيذ سلسلة من التحسينات الآنية، ولكن يحدث أحيانا، وبسبب هذا الميل بالذات، تصاعد في احتمال تعرض هذه الأجهزة لحالة هلع أخرى.

مفاجآت وحالات هلع على المستوى القومي

كلما ارتقينا من المستوى الفردي إلى المستوى الجماعي، التنظيمي ثم صعدنا إلى مستوى المجتمع والدولة، كلما تعاظمت أهمية التفرقة بين المفاجآت الآنية والمفاجآت الأساسية. ويحدث هذا وبصورة أساسية في أعقاب حدوث فجوة بين القدرات المحسنة للأجهزة على منع وقوع المفاجآت الآنية والاستفادة من المفاجآت. التي لم يتسن منع وقوعها وبين عجز الأجهزة في منع حدوث مفاجآت أساسية وفي عدم بلورة مدارك جديدة تتفق بصورة اكبر مع البيئة المحيطة في أعقاب حدوث هذه المفاجآت وقد أقامت الدولة العصرية أجهزة مختلفة لتأمين الدولة ضد أي مفاجآت، ابتداء من إنشاء الأجهزة المختلفة للتنبؤ بحالة الطقس ومرورا بإنشاء أجهزة رصد وتوقع للتطورات الاقتصادية والديموجرافية وانتهاء بأجهزة الردع ضد الهجمات الإرهابية أو ضد أي هجمات مفاجأة تقوم بها دولة معادية . ولم تكن غالبية هذه الأجهزة قائمة في طور الدولة قبل العصرية وعلى الأقل لم تكن قائمة بصورتها الحالية. وحدثت الوثبة الأساسية في هذا المجال في أعقاب الحرب العالمية الثانية وبعد أن طورت الوسائل التكنولوجية للاستشعار عن بعد ولجمع المعلومات

الواسعة والدقيقة، وبعد أن طورت حاسبات لتخزين المعلومات واسترجاعها وتصنيفها أوتوماتيكيا وبسرعات كبيرة ودقة عالية، وكذلك بعد تطبيق طرق وإجراءات البحث الكمي - وهي معلومات إحصائية في أساسها لتحليل المعلومات بكل دقة.

فهل نجحت هذه الأجهزة في منع وقوع مفاجآت آنية وأساسية على السواء؟

لا تعانى الدول العصرية من أي حساسية في التفرقة بين المدارك الآنية وبين المدارك الأساسية. كما إنها تحاول منع حدوث حالات هلع أساسي عن طريق استخدام ذات الأجهزة ونفس الوسائل التي أظهرت فعالية كبيرة في منع حدوث المفاجآت الآنية.

أما في المجتمعات التقليدية فقد كان الإنذار المبكر بوجود حالات من عدم التواؤم المنهجي بين الافتراضات الأساسية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخاصة بالمجتمع وبين الواقع، يشكل جزءا من الوظائف الملقاة على المثقفين والمنظرين الأيديولوجيين بل وعلى الأنبياء. ولكن المجتمعات العصرية صادرت هذا الدور من المثقفين والأيدلوجيين وفرضته على دوائر مؤسساتية " محترفة " أقيمت للتصدي للإنذارات

المبكرة في المجالات المختلفة على المستوى القومـــي. وتكـــون هذه المصادرة حاسمة في المجال الأمني عنها فـــي أي مجـــال أخر. وأقيمت في هذا المجال أجهزة إنذار مبكر متطورة للغايـــة تتفوق على كل ما لدى الدولة العصرية من أجهزة تنبؤ أخـــرى. وأجهزة المخابرات الحكومية هى اكبر محاولة منظمـــة عرفـــها المجتمع الإنساني لتركيز وحشـــد المـــوارد البشـــرية، الماليـــة والتكنولوجية بهدف توفير الإنـــذار المبكـــر علـــى المســـتوى الحكومي. ويظهر من عملية رصد نجاحات وفشل هذه الأجـــهزة في أرجاء العالم على مدى الثلاثين عاما الأخيرة أنـــها حققـــت إنجازات عظيمة في الحد من احتمال التعرض لمفاجـــآت آنيـــة ولكن فشلها في منع حدوث المفاجآت الأساسية لا يقل عظمة.

وسنتناول المغزى العالمي لظاهرة المفاجـــأة الأساســـية، وبشيء من الإسهاب في الجزء الثاني من هذا الكتـــاب. ولكـــي نستكمل عرض المزاعم المطلوبة لتحليل المفاجأة التي حدثت في حرب يوم الغفران، فان علينا أن نؤكد في هذه المرحلة علـــى أن الفشل في إعطاء الإنذار المبكر هو نمـــوذج صـــارخ للمفاجـــأة الآنية. ولا تتجسد المفاجأة التي حدثت في تقديم الإنذار المبكـــر، كما لم تتجسد، وسأعطى أمثلة على ذلك، أيضا في قضايا آنيـــة

كثيرة أخرى عرضت في أعقاب الحرب على أساس أنها تعبر عن جوهر المفاجأة التي حدثت في حرب يوم الغفران.

هل الحرب هي مجرد سلسلة من المفاجآت الآنية ؟

فور انتهاء الحرب جرى إبراز سلسلة من المجالات والقضايا الآنية التي ادعى خلالها أن جيش الدفاع تعرض فيها لمفاجأة، وان هذه المجالات والقضايا تجسد جوهر المفاجأة التي ألحقها العرب به (بالإضافة إلى الفشل في إعطاء الإنذار المبكر). ولكن عند دراسة كل واحد من هذه المجالات على حدة، والتي قيل ان جيش الدفاع تعرض خلالها للمفاجأة، تكشفت صورة مثيرة للاهتمام. فاغلب المجالات التي أدرجت تحت عنوان : مفاجأة حرب يوم الغفران" كانت معروفة للإسرائيليين قبل أكتوبر ١٩٧٣ وبخاصة منذ حرب الاستنزاف (١٩٦٩-١٩٧٠).

فقد مكنت هذه الحرب جيش الدفاع من متابعة استخدام العدو لمنظومات أسلحة جديدة ومتابعة نظرية العدو القتالية. وكان في مقدور جيش الدفاع وبمساعدة من المعلومات المخابراتية التي لديه أن يكتشف نقاط الضعف في قدراته وأن يجد لها الحلول ويمنع حدوث مفاجآت مشابهة أخرى في المستقبل.

ومن الأمثلة الأخرى لموضوع كان معروفا لدى جيش الدفاع خلال حرب الاستنزاف ولكن اعتبر أحد مفاجآت حرب يوم الغفران، استخدام الصواريخ الشخصية ضد الدبابات من طراز "ساجر" على أيدي قوات المشاة المصرية والسورية. فقد اعتبرت هذه الصواريخ خلال حرب يوم الغفران أحد الأسباب الرئيسية التي عرقلت تحركات جيش الدفاع في المعارك البرية في قطاعي القناة وهضبة الجولان وبخاصة في الأيام الأولى للحرب (أجريت في أعقاب الحرب اختبارات شملت عددا من الدبابات الإسرائيلية التي أصيبت بصواريخ ساجر مقارنة بتلك التي أصيبت بأنواع أخرى من الأسلحة. وتبين ان الصورة التي انتشرت خلال الحرب عن فعالية هذه الصواريخ في إلحاق إصابات بالدبابات الإسرائيلية كان مبالغا فيها بدرجة كبيرة. وتبين أيضا أن صواريخ ساجر شكلت النسبة الأقل من أسباب الخسائر التي لحقت بدبابات جيش الدفاع). ولكن استخدام الصواريخ ساجر لم يدرج في إطار المفاجآت. فبعد حرب الأيام الستة بحث المصريون عن حل للتفوق الذي أظهره جندي المدرعات الإسرائيلي في استخدام مدافع الدبابات وفي القتال خلال تحرك الدبابات. وهو التفوق الذي الحق بالمصريين هزائم

ثقيلة في معارك المدرعات ضد المدرعات في حربي سيناء والأيام الستة. وكان الحل الذي عثر عليه المصريون والسوريون يتمثل في تغيير نظرية القتال وتنفيذ تكتيك جديد ضد المدرعات الإسرائيلية. واعتمد هذا التكتيك على استخدام مجموعات مكثفة من الصواريخ المضادة للدبابات بواسطة جنود المشاة. وبحلول نهاية الستينيات وبداية السبعينيات كان المصريون والسوريون قد تسلحوا بكميات كبيرة من الصواريخ المضادة للدبابات. وجُرب هذا التكتيك الجديد للمرة الأولى ضد المدرعات الإسرائيلية خلال حرب الاستنزاف.

وتابعت شعبة المخابرات في القيادة العامة وباهتمام كبير، هذا التطور وحذرت من تواجد هذه الصواريخ الجديدة المضادة للدبابات. كما جُمعت المعلومات الفنية ودُرست بكل عناية أساليب استخدام هذه الصواريخ، بل ووزعت على وحدات جيش الدفاع تقارير تفصيلية لم تتضمن فقط التفاصيل الفنية بل تضمنت كذلك أساليب التشغيل والكوادر البشرية والكميات الدقيقة من هذه الصواريخ.

وحدثت في شتاء ١٢-١٩٧٣ ثلاثة اشتباكات حدودية كبرى في الجبهة السورية. وقد مُنى السوريون في الاشتباك

الأول بخسائر جسيمة وبخاصة من نيران الدبابات الإسرائيلية. وفي الاشتباك الثاني حدثت مفاجأة من جانب السوريين حين أطلقوا ما بين ٤٠-٥٠ صاروخا من طراز ساجر حيث نجحوا في تدمير دبابة إسرائيلية للمرة الأولى منذ حرب الأيام الستة. واستوعب جيش الدفاع الدروس المستفادة من الاشتباك الثاني وبسرعة فائقة، بل وقامت هيئة المخابرات الفنية في شعبة المخابرات بالقيادة العامة بتوزيع كتيب خاص تضمن تحليلا لتلك الظاهرة الجديدة. واصدر قائد الفرقة العسكرية التي كانت ترابط في الشمال في ذلك الحين العميد رفائيل إيتان أوامره بإقامة سواتر خاصة لحماية مواقع الدبابات الإسرائيلية ولإلغاء فاعلية الصواريخ ساجر عند حدوث اشتباكات مستقبلية. ورغم ان السوريين عادوا في الاشتباك الثالث الذي وقع بعد ذلك بعدة أيام واستخدموا عددا كبيرا من الصواريخ ساجر، فلم تصب أية دبابات إسرائيلية ولم تلحق أية خسائر بجيش الدفاع [٤]. وفي أعقاب هذه الاشتباكات قامت إدارة "تاحش" (إدارة نظرية الحرب الخاصة بسلاح المدرعات ومهمتها إجراء بحوث في نظرية حرب المدرعات وهى تعمل في إطار قيادة سلاح المدرعات)

بتوزيع توجيهات على الوحدات المدرعة لشرح أسلوب العمل ضد الصواريخ الشخصية المضادة للدبابات.

لم يكن استخدام الصواريخ ساجر في حرب يوم الغفران في إطار المفاجأة الآنية. فليس فقط ان الإشارات التقطت وحولت إلى جهاتها بل جرى تطوير تكتيك مضاد لهذا التهديد على المستوى الفني. ولكن ربما لم تجر تدريبات كافية في هذا الشأن. ودرست المعلومات والتقديرات المختلفة بشأن تأثير الصواريخ ساجر على أساليب القتال الخاصة بهذا السلاح الفردي، ولكن لم يُقيم تأثير الاستخدام المكثف لأعداد كبيرة من تلك الصواريخ الصغيرة الشخصية المضادة للدبابات على نظرية تشغيل واستخدام المدرعات الإسرائيلية والتي كانت تقوم على التحرك السريع للمدرعات حتى بدون الحصول على دعم مكثف من المدفعية الثقيلة وبدون تواجد قوات مشاة ميكانيكية. كما أن احتمالات تنفيذ البرنامج الدفاعي عن خط الدشم الإسرائيلية ضد أي عبور كانت تستند على الربط السريع للمدرعات بالدشم الأمامية مع إحباط العبور الذي يتم في مناطق غير مغطاة بحماية من تلك الدشم وذلك عن طريق الدفع بالمدرعات إلى مناطق العبور.

ويمكن الوقوف على المغازى المختلفة لظاهرة الصواريخ المضادة للدبابات على نظرية تشغيل المدرعات من المقال الذي نشره الجنرال يسرائيل تل بعد خمس سنوات من انتهاء الحرب. وقد وصف تل في مقاله هذا تأثير ظاهرة استخدام الصاروخ المضاد للدبابات في ساحة القتال كتحد جديد للمدرعات. فعلى العكس من المدافع المضادة للدبابات والمدافع الموجودة في مدرعات الخصم (وهى العدو الرئيسي للمدرعات منذ الحرب العالمية الثانية) والتي يمكن اكتشافها وتدميرها عن طريق القيام بمناورة للتحرك من خلال إطلاق النار، فإن الصاروخ المضاد للدبابات لا يمكن اكتشافه ولذلك يصعب تدميره". وهكذا ظهر وضع جديد في ساحة القتال العصرية. فلم تعد الدبابة قادرة على ان تحمى نفسها ضد السلاح الرئيسي المخصص لمقاومتها. وهذا الاختلاف بين المدفع والصاروخ الصغير يؤثر على أسلوب القتال وعلى التكتيكات القتالية لأنه برز عدو جديد يجب إطلاق نيران الدبابة عليه(٥).

وهناك وضع مشابه يمكن تحديد معالمه في مجال القتال المضاد للطائرات. فقد تسلح الجيش المصري بصواريخ ارض - جو ضد الطائرات قبل اندلاع حرب الأيام الستة. ورغم ان

المصريين استخدموا في هذه الحرب حوالي ٣٠بطارية من طراز سام ٢ SA-2 و سام ٢ب SA-2B، فإن السلاح الجوى لم يتعامل مع هذه البطاريات باعتبارها عنصرا خلق وضعا جديدا أووفّر للدفاعات الجوية لمصر ميزة ذات أهمية خاصة. وكانت الإصابات التي أحدثتها الصواريخ المضادة للطائرات قليلة في ذلك الحين. وأمكن إبطال مفعول جزء من هذه البطاريات بواسطة مدافع الطائرات وبدون الحاجة إلى تطوير أساليب ووسائل هجوم خاصة لتحقيق هذه الأهداف.

واستخدم المصريون في حرب الاستنزاف أنواعا مختلفة من بطاريات الصواريخ. فقد أضيفت إلى الصواريخ سام ٢، وسام ٢ب الصواريخ سام ٢س (المعروف بالصاروخ سام المعدل) وسام ٣ (لم يستخدم الصاروخ سام ٦ في حرب الاستنزاف ولكن كان من المعروف ان تشكيلات الدفاع الجوى في مصر وسوريا حصلت عليه قبل حرب يوم الغفران). قد خلق الاستخدام المتداخل لأنواع الصواريخ تلك وكذلك استخدام المدافع التي تتحكم فيها اجهزة الرادار ZSU – 23 بكميات كبيرة، التغطية المتبادلة لمنظومة الصواريخ المضادة للطائرات المصرية وجعل من الصعب العثور على "ثقوب" في الغطاءات

الرادارية وقدراتها النيرانية. وقد فقد السلاح الجوى في صيف ١٩٧٠ وقبل أيام معدودات من وقف إطلاق النار، خمس طائرات خلال محاولته للهجوم على منظومة الصواريخ المصرية. وقد ترسخ هذا التناغم الذي حدث خلال حرب الاستنزاف في وعى قادة السلاح الجوى وطياريه. وكانت الحرب ضد الصواريخ المضادة للطائرات خلال السنوات الثلاث التي فصلت ما بين حرب الاستنزاف وحرب يوم الغفران، هى أحد الموضوعات الرئيسية التي تدرب عليها الطيارون، كما طورت وسائل إلكترونية وأساليب مناورة جديدة من اجل التصدي لهذه الصواريخ. ولذلك لا يمكن الادعاء بأنه حدثت في هذا المجال مفاجأة في مفهوم "عدم المعرفة".

وهناك مثال أخر يلغى الادعاء "بعدم المعرفة" وهو يتصل بالقتال الليلي. فقد أدعى معلقون وضباط كبار في أعقاب الحرب بأن قوات جيش الدفاع فوجئت بقدرة العرب على القتال الليلي وقد عُرف عن جيش الدفاع حتى حرب يوم الغفران، بان قوات المشاة لدية تُحسن القتال الليلي، وهى تختلف في ذلك عن الجيوش العربية التي تخشى، وفق المسلمات القديمة، القتال الليلي وبالإضافة إلى ذلك فإن القتال الليلي يعتبر صورة للقتال

الذي يتطلب مستوى قياديا عاليا وقدرة قتالية داخل إطار الأطقم وخبرة في استخدام الأسلحة في الملاحة الليلية، وهي سمات اعتبرها الإسرائيليون ميزة لجيشهم وغير متوافرة لدى الجيشين المصري والسوري. وحقا ظهر اختلاف كبير في هذا المجال بين حرب الأيام الستة وحرب يوم الغفران. وقلل جيش الدفاع خلال الحرب من عملياته الليلية، وكان الجيشان المصري والسوري قد فاجأ جيش الدفاع باستخدام تشكيلات كبيرة خلال القتال الليلي (ومع ذلك فإن التصور المتعارف عليه والقائل بأن جيش الدفاع لم ينفذ على الإطلاق عمليات ليلية خلال حرب يوم الغفران هو تصور غير صحيح. وقد نفذ في ليلة السادس والسابع من أكتوبر عدة هجمات ليلية بقوات في حجم كتيبة وذلك خلال محاولات للتسلل إلى المواقع المصرية الأمامية وصد محاولات العبور، كما قامت قوة " شاكيد " ليلة التاسع والعاشر من أكتوبر وبقوة تصل إلى حجم كتيبة بالتسلل إلى موقع " بودابست ". وجاء تقدم اللوائين الرابع عشر والسابع والعشرين صوب خط المياه وعبور القناة في ليلة الخامس عشر والسادس عشر من أكتوبر. كما جرى تمشيط منطقة "طرطور ٤٢"، ومنطقة المزرعة الصينية" خلال عملية ليلية قامت بها

الكتيبة ٨٩٠ في ليلة السادس عشر والسابع عشر من أكتوبر وجرى نقل الكباري المتحركة إلى القناة في ليلة السادس عشر والسابع عشر من أكتوبر وتقدم اللواءان ٤٠١ و ٤٦٤ إلى منطقة الأدبية ليلة الثالث والعشرين والرابع والعشرين من أكتوبر حيث شقا طريقهما عبر التشكيلات المصرية وفي الجبهة الشمالية قام اللواء ٣١٧ بالاستيلاء على تل شمس في ليلة الثالث عشر والرابع عشر من أكتوبر. كما قام اللواء الأول واللواء ٣١٧ بالاستيلاء على جبل الشيخ بجزئيه السوري والإسرائيلي في ليلة الحادي والعشرين والثاني والعشرين من أكتوبر وبالإضافة إلى كل تلك العمليات فقد نفذت عدة غارات ليلية ومنها الغارة التي نفذت في جبل عتاقة).

وكما حدث في حالات أخرى، فقد برز التغيير في مستوى عمل الوحدات المصرية خلال القتال الليلي في حرب الاستنزاف (يجب تحاشى المبالغة في وصف القدرة المصرية والسورية على القتال الليلي خلال حرب يوم الغفران. فالعمل التنفيذي الهام والوحيد الذي قام به المصريون والسوريون خلال الليل تمثل في الاستمرار في عمليات العبور والهجوم التي بدأت في السادس من أكتوبر في ساعات ما بعد الظهر وكانت عمليات

وحدات الكوماندوز المعدودة والتي نفذت في الليل محدودة الحجم وذات أهمية محدودة). وقامت وحدات نظامية مصرية وليس بالذات وحدات خاصة فقط، بتنفيذ غارات ليلية عديدة وصل بعضها إلى ١٢ كيلو مترا شرقي خط القناة. واستخدم المصريون والسوريون في حرب الاستنزاف وسائل متنوعة للرؤية الليلية. وسقط جزء من هذه الوسائل في أيدي جيش الدفاع خلال حرب الاستنزاف حيث قامت المخابرات الفنية بفحصها. وكان من المعروف خلال هذه الفترة ان المصريين لا يكتفون بما يعرضه عليهم الاتحاد السوفيتي من وسائل مثل الرؤية الليلية بل اشتروا في عامي ١٩٧١-١٩٧٢ كميات كبيرة من تلك الوسائل من الغرب وبخاصة من بريطانيا. وكانت لدى أمان معلومات تفصيلية عن الجهد المكثف الذي قام به المصريون لشراء المعدات وتدريب القوات على وسائل الرؤية الليلية.

وقد وزعت هذه المعلومات على أفرع القيادة العامة وعلى التشكيلات الميدانية وجيش الدفاع وبصورة مستمرة.

وذكر قادة كبار عديدون في أعقاب الحرب بأن مصدر "هلعهم" الأساسي في هذه الحرب هو حجم القوات التي استخدمها

المصريون والسوريون وبالتنسيق المشترك فيما بينهم وذلك خلال المرحلة الأولى للهجوم. ومن الصعب تبرير هذه المفاجأة لأن المخابرات الإسرائيلية نجحت في بلورة " تقدير موقف " بشأن مخططات الهجوم العربية والتي تبين صحتها فيما بعد وكان يمكن أن نستخلص من هذه المخططات معلومات عن حجم القوات التي يعتزم العدو استخدامها في المرحلة الأولى للهجوم وإذا لم يكن ذلك كافيا، فقد تابع الإسرائيليون، المناورات التي قام بها الجيشان المصري والسوري للتدريب على أساليب تنفيذ هذه المخططات. وادعوا أيضا بأن الإسرائيليين فوجئوا من معدل نصب الكباري والنجاح في عبور قناة السويس. وقد اثبت الجيش المصري خلال حرب الاستنزاف قدرة على العبور بوحدات محدودة العدد. بل وتوافرت لدى أمان معلومات عديدة عن معدات العبور لدى الجيش المصري وتجهيز أماكن العبور وأماكن إقامة الكباري، وكما تبين فيما بعد خلال استجواب الأسرى المصريين فقد كانت المعلومات دقيقة (نفذ جزء من المناورة في منطقة البحيرات المرة وأمام أعين جنود جيش الدفاع في المواقع الأمامية بل وجرى تصويرها). كما علم أمان وجيش الدفاع بصورة عامة بالاستعدادات التي قام بها

المصريون للتغلب على الكثبان الرملية التي أقامها جيش الدفاع شرقي القناة عن طريق استخدام مدافع المياه.

وهناك ادعاء أخر يقول بأن جيش الدفاع فوجئ بقدرة الجندي العربي على استخدام معداته العسكرية المعقدة بفاعلية كبيرة رغم أن منظومات الأسلحة السوفيتية التي كانت لدى السوريين والمصريين لم تكن تتطلب هذه الحرفية الفنية العالية كما هو الحال بالنسبة لمنظومات الأسلحة الغربية.

وإذا القينا نظرنا إلى الوراء فسنجد انه لم تكن في هذه الحقيقة ما يثير المفاجأة. فقد اكتسب المصريون خبرة كبيرة في استخدام ما لديهم من أسلحة في حرب الاستنزاف. ففيما عدا الصواريخ " سام٦ " لم تستخدم قبل حرب يوم الغفران سوى منظومة سلاح مصرية وحيدة تشمل الصواريخ أرض أرض من طراز سكاد، (وإن كانت لدى إسرائيل معلومات واسعة عن تواجدها وعن احتمالات استخدامها). ولكن تأثير تلك الصواريخ على الحرب كان هامشيا (وإن لم يتضح حتى الآن مدى تأثير ذلك على تصرفات الأطراف المتحاربة بالنسبة لضرب أهداف في العمق. وليس من الواضح، مثلا مدى تأثير تواجد هذه الصواريخ لدى المصريين رغم عدم استخدامها، على حقيقة أن

جيش الدفاع تحاشى ضرب أهداف في العمق المصري ولكنه هاجم أهدافا في العمق السوري بعد أن أطلق السوريون صاروخا من طراز فروج على وادى يزر عيئل). كما فوجئ الإسرائيليون بتمسك الجندي العربي بالمهام التي ألقيت عليه وهو ما يتناقص تماما مع الصورة التي رسمت عن القدرة القتالية العربية في حرب الأيام الستة. ولا يوجد هنا أيضا أي مبرر للشعور بالمفاجأة. وقد برزت مثل هذه الروح في حروب سابقة وبخاصة في المعارك الدفاعية، على غرار معارك الحليقات في حرب ١٩٤٨، والمعركة من اجل الدفاع عن " أبوعجيلة " في حرب سيناء (١٩٥٦) والمعركة من اجل الدفاع عن منطقة " الجردى " في حرب الأيام الستة. كما برزت روح الإصرار والاستعداد للمعاناة من أجل تحقيق ما اعتبرته مصر هدفا قوميا، خلال حرب الاستنزاف عندما تجمع حوالي مليون لاجئ، تركوا منطقة القناة، حول القاهرة خلال المرحلة الأخيرة لهذه الحرب، وعندما قصف السلاح الجوى الإسرائيلي منطقة الدلتا في مصر. وكان الغرض من القصف في العمق، زعزعة الروح القتالية للمصريين وخفض معنويات المواطنين. ولكن هذا الهدف تحقق جزئيا (لم تدرس حتى الآن العلاقة بين معاناة

السكان المصريين بما في ذلك مـــدارك، المؤخـــرة المصريـــة لأهوال الحرب خلال عمليات القصف في العمق المصري فـــي حرب الاستنزاف، وبين التحول الذي أدى إلى دخول مصر إلـــى مسيرة السلام). وأحد الآمال التي راودت دوائر إسرائيلية معينـة من قصف العمق في مصر، هو أن ذلك سيدفع دوائر مصريـــة إلى إسقاط نظام عبد الناصر. ولكن أدى قصف العمـــق بـــالذات إلى تعاظم تأييد النخبة المصرية لعبد الناصر.

ولا تستقيم هذه الأمثلة ؛ إذن، مع وصف حالة الهلع التـــي حدثت في حرب يوم الغفران على أســـاس أنـــها سلســـلة مـــن المفاجآت الآتية. فالمعلومات المتوافرة حول كل واحدة من هـــذه المفاجآت كانت معروفة مسبقا للإسرائيليين. كما درســـت هـــذه المعلومات ووزعت على الوحدات والدوائر المتصلـــة بـــالأمر، حيث قام هؤلاء، وبصورة عامة، بتطوير أساليب الرد التي ثبـــت فيما بعد نجاحها بهذه الصورة أو تلك. وذكـــر الفريـــق احتيـــاط برليف في تناوله لهذه النقطة خلال لقاء صحفي جرى معه بعـــد أيام معدودة من توقف الحرب وبأسلوب صارم : " لم تظهر فـــي ساحة القتال أية منظومة سلاح لم يكن جيش الدفـــاع لا يعـــرف عنها شيئا ولم تؤلف عنـــها كتيبـــات تفصيليـــة تحـــدد وســـائل

استخدامها. وينطبق نلك على الكباري التي استخدموها والتي رأيتهم يتدربون عليها خلال عملي كرئيسي للأركان، وكذلك ينطبق ذلك على الطائرات والصواريخ. لقد كنا نعرف منظومة الصواريخ المضادة للدبابات . وقد أصيبت لنا خلال حرب الاستنزاف ثلاث دبابات من تلك الصواريخ. وهناك كتيبات أعدتها المخابرات وتصف تلك الصواريخ بصورة كاملة. لم تكن هناك مثل هذه المفاجأة في قوة العدو. لقد عرف جيش الدفاع اغلب التفاصيل عن الحرب المستقبلية وعن مكوناتها المختلفة. ودرست وحداته المختلفة هذه الأمور وتدربت عليها وأعدت نفسها للرد الآني المناسب للتحديات التي يمكن أن يضعها العدو خلال الحرب. وقد فشلت إسرائيل في تفهم النظرية الأساسية للحرب المستقبلية وفي تعديل وتحديث نظريتها الأمنية بما يتمشى مع المعلومات التي توافرت لديها. وهناك قاسم مشترك لسلسلة جوانب الفشل في الرد، وكما كشفت عنها الأحداث المفاجئة، وذلك على مستوى حالة الهلع الأساسية. وعلى هذا المستوى يجب ان نحاول تفهم جوهر المفاجأة التي حدثت في حرب يوم الغفران.

حرب يوم الغفران كمفاجأة أساسية

إعادة دراسة حرب يوم الغفران باعتبارها مفاجأة أساسية ستكون سهلة للغاية إذا اختير مصطلح "التصور" كنقطة انطلاق لهذه الدراسة. فقد ترسخ هذا المصطلح فيما يتصل بحرب يوم الغفران واستخدمته لجنة اجرانات لتحديد الأسباب التي أدت إلى حدوث المفاجآت وعلى ذلك، فإن مناقشة مصطلح " التصور " وكما فهمته لجنة اجرانات قد يساعد في فهم طبيعة المفاجأة الأساسية.

وقد رأت لجنة اجرانات أن مفاجأة حرب يوم الغفران وقعت لأن "التصور" الخاص بشعبة المخابرات في القيادة العامة كان خاطئا. وقد ربطت اللجنة ذلك بافتراضيين استراتيجيين وهما :

(أ) أن مصر لن تبدأ الحرب ضد إسرائيل إلا إذا ضمنت لنفسها وفي البداية توافر القدرة الجوية على مهاجمة العمق الإسرائيلي وبخاصة مهاجمة المطارات الإسرائيلية الرئيسية لكي يصاب السلاح الجوى الإسرائيلي بالشلل.

(ب) إن سوريا لن تشن هجوما واسعا على إسرائيل إلا إذا حدث ذلك في توقيت واحد مع مصر(٧). إن الخط الفاصل

لما تصفه لجنة اجرانات "بالتصور" هو خط ضيق للغاية ويترك بدون تفسير أبعادا واسعة للظاهرة. وهل تمثلت المفاجأة الأساسية في حرب يوم الغفران في أن العرب هم الذين بدأوا الحرب رغم التفوق الجوى الإسرائيلي الحاسم؟.

ويبدو انه من الواضح للقارئ وخلال هذه المرحلة من المناقشة انه لكي يتسنى استيعاب جميع الأمور التي تعرضت فيها إسرائيل للمفاجأة خلال الحرب، فيجب تفسير "حالة الهلع" وفق مستوى مختلف من العمومية. فإحدى السمات الخالصة للمفاجآت الأساسية تتصل ببعدي "الحجم" و"العمق" الخاصين بالظاهرة والحجم يعنى أن الظاهرة تتصل بمجموعة متنوعة من العوامل، والعمق يعنى أن جذور الظاهرة تعود إلى الماضي وليس فقط إلى الحاضر القريب من موعد حدوث حالة الهلع. ووصف لجنة جرانات " للتصور" والذي أشرنا إليه لا يفسر هذه الأبعاد. فلا يمكن الوقوف على بعد "الحجم" الخاص بالظاهرة عن طريق تقديم تفسير يقوم على التمسك بافتراض إستراتيجي خاطئ على نحو ما فعلت لجنة اجرانات. وتحدثنا في الفصل السابق عن مجموعة واسعة من المفاجآت التي لا يمكن إدراجها ضمن

هذا التفسير. ويمكن ان نضيف إلى النماذج السابقة مفاجآت في مجالات مختلفة مثل : قدرة الدول العربية على تحقيق تنسيق فعال فيما بينهما للعمل ضد إسرائيل رغم ما بينهما من خصومات، وكذلك ما تحقق من تنسيق في مجلات غير عسكرية مثل الاستخدام الناجح من جانب العرب لسلاح البترول(افترض أمان قبل الحرب بأنه سيسبق الهجوم المتناسق والذي سيبدأ في توقيت واحد في الجبهتين، تنسيق مصري سوري عسكري وسياسي بما في ذلك إقامة قيادة مشتركة وخلافه. وقد فوجئ "أمان" بان العرب نجحوا في تنظيم هجوم في وقت واحد في الجبهتين وبدون تحقيق التنسيق المذكور ومع ذلك تبين خلال الحرب وبعدها مباشرة، أنه بالإضافة إلى توقيت بدء الحرب والتي جاءت في توقيت واحد، فقد عملت كل واحدة من الدولتين وفق الاعتبارات العسكرية والسياسية الخاصة بها حتى عندما أدى ذلك إلى إضعاف الوضع العسكري والسياسي للدولة الشقيقة الأخرى).

والملمح الهام الأخر الخاص بحجم المفاجأة الأساسية، والذي لم يشمله وصف لجنة اجرانات لمصطلح "التصور"، هو

أن هذا المصطلح لا يشمل فقط سلسلة من المفاجآت التي قام بها الخصم، بل شمل أيضا سلسلة من حالات "الهلع" التي شعر بها الطرف التي تعرض للمفاجأة والتي لا ترتبط بالخصم مباشرة (٨). فقد انهارت خلال حرب يوم الغفران الفكرة القائلة بأن جيش الدفاع هو "محمية طبيعية" داخل المجتمع الإسرائيلي وانه يمكن الحفاظ، ولفترة طويلة من الوقت، بهذا الجيش كواحة للفعالية والمنعة للنأى به بعيدا عما يصيب المجتمع المحيط به. وفوجئ الإسرائيليون، وبخاصة في القيادة الجنوبية، بما اعتبر بمثابة عدم فعالية تنظيمية، وإهدار وعدم تنسيق في مجال توزيع الموارد بين الوحدات والنظرة المحافظة من جانب القيادة الأمنية خلال التفكير على المستوى الاستراتيجي. وفوجئ الإسرائيليون أيضا بانهيار المصداقية في التصريحات المتكررة من جانب زعمائهم من أن إسرائيل حققت بعد الأيام الستة انتصارا رسخ أمنها وحولها إلى قوة جوية كبرى مما سيساعدها على تخليد الوضع الراهن السياسي - الاستراتيجي على الدوام (٩). ولكن تبين للإسرائيليين في السابع من أكتوبر،وللمرة الأولى، أن هنالك إمكانية في أن تقع الهزيمة بجيش الدفاع على أيدي العرب بكل ما يستدل من ذلك من معان تجاه الصورة التي كونها

الإسرائيليون عن قوتهم القومية - الاجتماعية. لقد فوجئ الإسرائيليون عندما تبين لهم بأنه ليس في مقدور جيش الدفاع حسم المعركة في جبهتين في آن واحد وإنه لكي يحقق الحسم في إحدى الجبهتين فإن عليه أن يتقبل وبصورة مؤقتة المكاسب العسكرية التي يحققها العرب في الجبهة الأخرى.

لقد كشف كل هذا، وبصورة تدعو للهلع، عن حدود القوة لدى إسرائيل. والتأكيد على ان حدود القوة تلك لا تعطى الإجابة المناسبة للتهديدات الخارجية، قضى تماما على الصورة التي كونتها إسرائيل عن نفسها وعن اتجاهات تطور النزاع وعن المكاسب التي حققتها في هذا المجال حتى الآن. ومن المؤكد أن القارئ أدرك في هذه المرحلة، أن المفاجآت التي تعرضت لها إسرائيل في حرب يوم الغفران والتي نبعت من الصورة التي كونتها عن نفسها وعن الخصم، تأتي في مستوى تجريدي يختلف عن المستويات التي وردت في المناقشات التي دارت حول المفاجآت الآنية. وكما ذكرنا، فان المفاجآت التي تكونت لدى الطرف الذي تعرض للمفاجأة فيما يتصل بنفسه وبصورة الخصم، هى من السمات الخاصة بالمفاجأة الأساسية ولا تندرج في إطار المفاجأة الآنية. كما أن المفاجآت الأساسية التي تصيب

الطرف الذي تعرض للمفاجأة فيما يتصل بالصورة الخاصة بــه، تخرج عن إطار أي وصف متعارف عليه للمجالات التــي تقــع ضمن مسئوليات المخابرات أي : " جمع المعلومات عن العــدو ودراسته". ان حجم وعمق وأنواع الموضوعات التي تعرضــت إسرائيل فيها للمفاجأة في حرب يوم الغفران تخرج عن مجــالات عمل المخابرات (١٠).

ولكي نحاول الوقوف على بعد "العمق" الخــاص بحالــة الهلع التي حدثت في حرب يوم الغفران، فيجب أن نوسع مــدى رؤيتنا وان نتفحص علامات الطريق التاريخية في مسيرة تطــور النزاع، وهى أمور تقاس بالسنوات. ويمكن العثور على جــذور حالة الهلع الإسرائيلية في حرب الأيام الستة وفي حرب السويس ١٩٥٦، بل ومن الجدير أن نبتعد اكثر ونصــل إلــى الــدروس والأوصاف المستفادة من حرب ١٩٤٨. ولا يمكن لأي تحليــل شامل كهذا أن يندرج ضمن هذه الدراسة. ولكن من اجــل أدراك المغازى الخاصة بأبعاد "عمق" المفاجــأة الأساســية، لا يمكــن التخلي عن ضرورة تقديم مثال على ذلك، ولو بصورة جزئيــة، ويتصل باثنين من المكونات الهامة في مسيرة تطــور المفاجــأة الأساسية الإسرائيلية. ويتصل المكون الأول بالصورة المرسومة

عن "الخصم" ويتصل الأخر بالصورة المأخوذة عن الذات. وكان الرئيس عبد الناصر قد بلور قبل حرب الأيام الستة مصطلح " الحل العسكري " الذي لا يعتبر نقيضا للحل السياسي بل هو يحوى إمكانية التداخل بين المصطلحين. فلم يكن هدف "تحرير الأرض المحتلة " قبل حرب الأيام الستة أو كما عدل بعد هذه الحرب إلى مصطلح " إزالة آثار العدوان " قد فهم من جانب الزعامة المصرية كشيء قابل للتنفيذ بالوسائل العسكرية الخالصة. واخذ إدراك حقيقة التفوق العسكري الإسرائيلي يؤثر، إذن، على إدراك جوهر "الحل العسكري" لدي المصريين قبل اندلاع حرب الأيام الستة. وتحولت هذه النظرة بعد الحرب إلى شيء بديهي ومقبول ليس فقط من جانب ناصر بل أيضا من جانب خليفته " السادات ومن جانب الدائرة الضيقة للزعامة السياسية الكبرى، بل وجرى التعبير عن ذلك كتابة في مقالات عديدة نشرت في الصحافة المصرية والأجنبية بل ووردت ضمن الإصدارات العسكرية الإسرائيلية "(١١).

ووصلت هذه المعلومات إلى أيدي أمان حيث عكست تقديراته الصارمة للموقف مغزى مصطلح "الحل العسكري" لدى المصريين وكشفت عن أهداف الحرب المستقبلية (١٢). وعلى

ذلك يكون من المستغرب عدم الفهم السياسي والعسكري الــــذي أظهرته الزعامة الإسرائيلية تجاه طبيعة وأهداف الهجوم العربــي في يوم الغفران. ولكن يجب العودة والبحث عن جـــذور "عــدم الفهم " هذا إلى سنوات عديدة تسبق المفاجأة التي حدثـــت فــي حرب يوم الغفران.

لقد خلقت سلسلة حروب إســرائيل، منــذ حــرب ١٩٤٨ وحتى حرب يوم الغفران صورتين داخل المجتمع الإســرائيلي. تقول الأولى : "بأن الأمن يحــدد بالوســائل العســكرية وليــس السياسية. وتقول الثانية : " بان أي صدام عسكري مع العـــرب ينتهي بتعاظم الأمن الإسرائيلي ". وكان لحرب الأيام الســتة دور حاسم في ترسيخ هاتين الصورتين. فقد بات ينظر إلى نتائج تلـك الحرب على أساس إنها تجسيد راسخ لحقيقة أن محاولة العــرب تحقيق أهدافهم بالقوة هو أمر غير قابل للتحقيــق بــل أن ذلــك سيخلق واقعا استراتيجيا جديدا يقلص من فرصهم المستقبلية فــي تحقيق أهدافهم. وقد توافرت خلال حــرب الاســتنزاف جميــع الملامح المطلوبة لزعزعة هذا التصور ولكن، وبصورة تدعـــو للاستغراب، قاموا بترسيخ هذا التصور. وقد نظر الإســرائيليون إلى نهاية حرب الاستنزاف على أساس إنـــها نصــر إســرائيلي

يثبت عجز العرب في أن يفرضوا على إسرائيل حلولا بالوسائل العسكرية، وانه بعد ثبوت التفوق الإسرائيلي الحاسم في حرب الأيام الستة باعتبارها حربا شاملة، فان حرب الاستنزاف أثبتت انه ليس أمام العرب فرصة الصمود في وجه إسرائيل في مثل هذه الحرب.

اعتقدت الزعامة الإسرائيلية إذن بإن حرب الاستنزاف بالذات عمقت لدى العرب مشاعر الإحباط بسبب عدم قدرتهم على تحقيق أهدافهم ضد إسرائيل وأن الشي المجدي لإسرائيل الآن هو التزام موقف متصلب في التمسك بمبادئها خلال تعاملها مع العرب. وأدت حرب يوم الغفران إلى تبديد كل هذه التصورات (سنضطر منذ الآن فصاعدا وخلال حديثنا عن التصورات والمواقف وتقديرات الموقف الإسرائيلية إلى اتباع أسلوب التعميم. ولا يستدل من ذلك انه لم تكن هناك اعتراضات على هذه التصورات والمواقف وتقديرات الموقف الإسرائيلي سواء داخل مؤسسات السلطة او خارجها خلال الفترة الزمنية المتطورة) وفجرت من جديد وبصورة ملموسة مشاعر عدم الثقة في التواجد الإسرائيلي ذاته[١٣].

ومن الدروس التي استفادها الإسرائيليون مـن تجاربـهم خلال حروبهم مع الدول العربية، عدم قـدرة إسـرائيل علـى ترجمة مكاسبها العسكرية إلى مكاسب سياسية مستمرة. وربمـا أدت هذه الصورة التي ترسم عائدا سيئا خلال تحويل انتصـارات إسرائيل العسكرية إلى مكاسب سياسية إلى الفشـل فـي رسـم تصور متناسق حول القدرة على تحويل الانتصارات العسـكرية إلى إنجازات سياسية من جانب العـدو. وسـاعد ذلـك علـى صعوبة إدراك حقيقة أن العرب قد يحددون عائدا مرتفعـا عنـد ربطهم بين الإنجاز العسكري المحدود والجزئي وبين الإنجـاز السياسي العظيم (يحدث ذلك رغم أن أحد الدروس المستفادة مـن حرب السويس ١٩٥٦ هو أن المصريين نجحـوا فـي تحويـل الهزيمة العسكرية إلى إنجاز سياسي).

وتشكل الرؤية المصرية لحرب الاستنزاف دحضا واضحا لتلك النظريات الإسرائيلية، ولكن لم يتم الاستفادة من هذا الدرس حيث واصلت إسرائيل التمسك بتصور خـاطئ عـن أهـداف الحرب العربية عشية حرب يوم الغفران وخلالها أيضا. وعلـى ذلك فإن المعلومات الواضحة والتي تتحدث عن قيام المصرييـن والسوريين بحشد قواتهم استعدادا للحرب لم تدفع القيادة السياسية

إلى تصديق أن السادات والأسد سيبدأن الحــــرب حقــا. وكـــان الموقف الإسرائيلي يرى بان مثل هذه الحرب ستحسم عســكريا، وان كل الحسابات تشير إلى أن العـــرب يفتقـــرون أي فرصــــة للانتصار فيها.

وفي حقيقة الأمر فإن المصريين اظهروا إصــــرارا فـــي تمسكهم بمواقفهم وخطواتهم في فترة ما بعد حرب الأيام الســـتة وحتى اندلاع حرب يوم الغفران. ولم ينظـــر المصريـــون إلــى حرب يوم الغفران على أساس إنها كانت فشلا لهم مما يتطلـــب تغيرا جوهريا في استراتيجيتهم السياسية العسكرية. ويمكن رسـم خط تصوري مصري يمتد منذ بداية حرب الاســتنزاف وحتـــى نهاية حرب يوم الغفران. وأعلن عبد الناصر عندما بدأ حـــرب الاستنزاف في خطاب علني ألقاه أمام حزب الاتحاد الاشـــتراكي المصري في السابع والعشرين من مارس ١٩٦٩، بأن الخطـــة المصرية تشتمل على أربع مراحل، حيـــث تســتهدف المرحلـــة الأولى تدمير خط برليف عن طريق القصف المدفعـــي الثقيـــل. وفي المرحلة الثانية ستقوم القوات الخاصة المصرية بعبور القناة والإغارة على الدشم والمواقع الإسرائيلية. وفي المرحلة الثالثـــة سيصعد المصريون غاراتهم على خط برليف ويعمقوا توغلـــهم

داخل سيناء حيث يقومون بالهجوم على الوحدات والمنشآت الإسرائيلية في عمق سيناء. وتتضمن المرحلة الرابعة والأخيرة عبور القوات المصرية القناة في إطار عملية عسكرية واسعة ويستولون على مناطق في الضفة الشرقية للقناة من أجل تحطيم حالة الجمود السياسي. إذن، نشرت أهداف الحرب ومراحلها على الملأ ونفذت وفقا للخطة الأصلية.

ووافق عبد الناصر في يوليو ١٩٧٠ على وقف إطلاق النار بتأثير من الهجمات الجوية الإسرائيلية في عمق الدلتا المصرية وبخاصة تحت تأثير الخسائر المصرية في جبهة القناة. وفور بدء سريان وقف إطلاق النار قام عبد الناصر بالدفع بمنظومة الصواريخ المصرية المضادة للطائرات إلى منطقة القناة وبصورة تتعارض مع اتفاق وقف إطلاق النار. وجرى ذلك تحت حماية هذا الاتفاق. وكانت هذه خطوة ذات أهمية حاسمة ساعدت المصريين على التحول إلى المرحلة الرابعة وهى حرب يوم الغفران. ولكن غالبية القيادات الإسرائيلية لم تفهم في حينه مغزى هذه الخطوة. كما نظروا في حينه إلى تزايد حجم الإمدادات الأمريكية لإسرائيل في مجال الطائرات وإلى العثور عن مخرج لتوقف إسرائيل عن مواصلة

المفاوضات حول مشروع روجرز ـ على انه تعويض مناسب لها مقابل سكوتها على تواجد منظومة الصواريخ المصرية بالقرب من القناة. وقد لخص عيزر وايزمان الموقف المصري وأبعاده على حرب يوم الغفران على النحو التالي :"لقد بدأت حرب أكتوبر ١٩٧٣ في أغسطس ١٩٧٠ حين سكتت إسرائيل، ومن منطلق اللا مفر كما يقولون ، على الدفع بمنظومة الصواريخ المصرية إلى قناة السويس، رغم الانتهاك الصريح لاتفاق وقف إطلاق النار، واكتفت بوعود أمريكية بدلا من قيامها بتدمير هذه المنظومة وعدم الإبقاء على أي أثر لها. لقد كان ذلك هو التقصير الأكبر والذي بسببه نجح المصريون في عبور القناة وترسيخ أقدامهم في الضفة الشرقية لها وليس لان قوات الاحتياط لم يجر تعبئتها في الوقت المناسب عشية حرب يوم الفقران وليس كذلك لأن المدرعات لم تنتشر كما يجب(١٤).

وقد أجلت وفاة عبد الناصر (في ١٩٧٠/٩/٢٨) الاستعدادات للمرحلة الرابعة إلى الأشهر الأولى من عام ١٩٧٣. وقام السادات مع صعوده إلى السلطة بإعادة دراسة خيارات " الحل العسكري ". وكان يبدو ولفترة معينة أنه تخلى عن هذا الطريق ووضع كل أوراقه على " الحل السياسي ".

ولكن اقتناعه بأن الحل السياسي يفتقر إلى فرص التحقيق في " الظروف الراهنة " هى التي دفعته للعودة إلى " الحل العسكري " كطريق عمل وحيد أمام مصر في ذلك الوقت. ومن هنا، يكون السادات قد واصل، من الناحية التاريخية، برنامج المراحل الأربع الذي وضعه عبد الناصر وحيث تعتبر حرب يوم الغفران محاولة لتنفيذ المرحلة الرابعة في برنامج عبد الناصر[١٥]. ويمكن الوقوف على الاستمرارية الجادة في التمسك بالنظريات الاستراتيجية لكل من عبد الناصر والسادات، والتي حاول السادات فيما بعد تشويهها بقدر الإمكان، من خلال التطلع إلى المخططات والمناورات العسكرية المصرية. فقد كانت الخطة المصرية لحرب يوم الغفران والمعروفة باسم "جرانيت، المعدلة" هى نسخة محسنة من الخطة المعروفة باسم "جرانيت ١" والتي وضعت في النصف الأول عام ١٩٧٠. ومرت هذه الخطة، منذ ذلك الحين، بعدة تغيرات ولكنها احتفظت بنواتها الأولى.

وعلى النقيض من المصريين الذي عملوا على تحقيق هدفهم، أي استعادة سيناء بأي الوسائل السياسية وحيث كان الهدف الأساسي من عملياتهم العسكرية هو دفع مسيرة السلام بصورة أساسية، فقد اعتزم السوريون تحقيق هدفهم، أي استعادة

هضبة الجولان، بالوسائل العسكرية. وقد حـدد وزيـر الدفـاع السوري العماد مصطفي طـلاس فـي لقـاء مـع الصحفيين السوريين في الذكرى السنوية الثانية لحرب أكتوبر، الاختـلاف الأساسي بين مصر وسوريا في رؤية مضمون " الحل العسكري " وأبعاده على التخطيط العملي فقال : " لقد سعينا إلـى تحرير الأرض العربية المحتلة ولكن الزعامة السياسية في مصر سعت إلى عبور القناة والبقاء على ضفتيها دون أن تحاول التوغل إلـى العمق، وذلك رغبة منها في تحريك القضيـة علـى المستوى الدولي[١٦].

ولم ينجح المصريون خلال حرب الاستنزاف ذاتـها فـي استكمال المرحلة الثالثة وهى تدمير خط برليف بل العكس هـو الصحيح. فقد جرى تعزيز خط برليف وتقويتـه خـلال حـرب الاستنزاف. وحقا لم يمنع هذا الخط توغـل وحـدات مصريـة وبخاصة في ساعات الليل في بعض قطاعات الضفـة الشـرقية التي لم تكن مغطاة بقوة نيرانية أو بمواقبة من جـانب المواقـع الإسرائيلية الأمامية. ولكن تبين أن المصريين لـم يسـتطيعوا ترجمة هذا التواجد إلى قيمة اسـتراتيجية أو سياسـية، وكـانوا يضطرون إلى الانسحاب مع بزوغ النهار. وأمكـن إذن تـأمين

التواجد الإسرائيلي على خط القناة حتى إذا لم تتوافر وسائل منـع التسلل المصري. ونجح الإسرائيليون وبقوات عسـكرية قليلـة نسبيا في جعل غالبية وحدات الجيش المصري تلازم أماكنـها. ومع ذلك فقد استطاع المصريون من الناحية العسكرية، وعـن طريق الجرأة والقدرة على تنفيذ غارات ليلية على خط المواقـع الأمامية، تقوية شعورهم بأن في مقدورهم التغلـب علـى خـط التحصينات الإسرائيلية والذي اعتبروه عقبة أساسية، ليس ماديـة فقط بل أيضا رمزية.

وذكرت تقديرات الموقف الإسرائيلية في أعقـاب حـرب الاستنزاف بان المصريين لم يحققوا أهدافهم من تلك الحرب وأن السادات تخلى حقا عن الخطط التي وضعها عبد الناصر. ولذلـك قام الإسرائيليون بإخلاء جزء من مواقع خط برليف وقللوا مـن حجم قواتهم المتواجدة في المواقع المتبقية (أغلقت عشرة مواقـع من بين ٢٦ موقعا كانت تشكل خـط برليـف خـلال حـرب الاستنزاف وطمرت بالرمال كما خفضت العناصر البشرية فـي المواقع الأخرى). وهكذا استكملت المرحلة الثالثة ولو بصـورة جزئية وفق التصور المصري.

ومن الآن فصاعدا اتجه المصريون إلى التخطيط للمرحلة الرابعة. ولا يجب أن يفهم من ذلك أن خفض حجم خط برليف تم انطلاقا من تصور سطحي كان يرى بأن انتهاء حرب الاستنزاف يلغى الحاجة إلى الاستعداد للتصدي لأي محاولة مصرية لتحقيق مكاسب سياسية عن طريق العمل العسكري. ومع ذلك كانت التقديرات تشير إلى تدنى احتمالات حدوث ذلك. ولما كان الإسرائيليون قد اعتبروا انتهاء حرب الاستنزاف فشلا لخيار الاستنزاف كأسلوب قتال مصري، فقد رأوا أن المصريين لن يحاولوا العودة إلى مثل هذا الطريق مرة أخرى.

وكانت تقديرات جيش الدفاع في بداية السبعينيات تشير إلى ان المصريين وبسبب فشلهم في ١٩٦٧ و ١٩٧٠ سيتحاشون التورط في حرب شاملة او في حرب استنزاف. وعلى هذا فمن المحتمل أن يختاروا حلا وسطا بين حرب الاستنزاف والحرب الشاملة في صورة تنفيذ عمليات عبور ليلية يقوم بها لواء أو لواءان من قوات المشاة مع السيطرة على مساحات يسهل الاحتفاظ بها في المنطقة الواقعة بالقرب من جزيرة البلاح والتي توجد بها كثبان رملية تسهل من عمليات الدفاع في وجه أي هجوم مضاد بالمدرعات وأيضا من خلال

الاعتماد على الدعم المكثـــف مـــن جـــانب المدفعيـــة الثقيلـــة والمدرعات المصرية المرابطة في مواقعها الثابتة. ومثـــل هـــذا العمل كان سيشكل تحديا جادا لجيش الدفاع وبـــدون أن يـــورط المصريين في عمليات نصب كباري معقدة وخطرة (تحمل هـــذه الإمكانية وفق المعجم الخاص بجيـــش الدفـــاع اســـم : حـــرب استنزاف معدلة). وخلال مثل هذه الحرب تقل أهميـــة المواقـــع الأمامية حيث أن التصدي لمثل هذه المشكلة يتطلب الاســـتخدام الجزئي أو الكامل للقوات المدرعة التابعـــة للفرقـــة العســـكرية المرابطة في هذا القطاع.

لقد كانت النظرية الاستراتيجية المصرية للحرب المحدودة كوسيلة لتحقيق هدف سياسي معروفة للإسرائيليين بـــل وقـــامت أجهزة المخابرات الإسرائيلية بتقييمها باعتبارها أســـلوب عمـــل محتمل من جانب المصريين وذلك قبل وقت طويل من انـــدلاع حرب يوم الغفران. وقد عرضت هذه النظرية على دوائر القيـــادة العامة مرات عديدة. فخلال إعداد تقدير الموقف الســـنوي مـــن جانب أمان عن عـــامي ١٩٧٣/٧٢ عرضـــت هـــذه النظريـــة كأسلوب عمل محتمل من جانب المصريين في الحرب باعتبارها هجوما يستهدف احتلال قطاع ضيق من الأرض فـــي الضفـــة

الشرقية. واعتبرت مثل هذه الخطوة العسكرية احتمالا معقـــولا لأنها تتفق مع تقديرات الموقف الخاصة بقسم الاتجاهـــات فـــي "أمان" والتي تحدثت عن أهداف المصريين من الحرب، وهـــي الأهداف التي يمكن تحقيقها رغم تدنى وضعهم فـــي المجـالين الجوى والمدرعات ولكنهم سيعلمون تحـــت غطـاء منظومـة الصواريخ التي توفر لهم الغطاء الجوى لمسافة ٢٠ كيلو مـــترا في الضفة الشرقية للقناة[١٧]. ومع ذلك أعتبر ذلك أحد وســائل العمل المصرية الذي اعتبرته تقديرات أمان "محتملـة التحقيـق" ولكن لم يكن هناك ما يؤكـد نـوع الوســائل التـي سـيتخذها المصريون. وقد نظم في الساعة الحادية عشر من صبيحة يـوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ اجتماعا لمجموعـــة مـن الخـبراء بحضور وزير الدفاع.

وكما هو متبع في هذه الجلسات فقد استهل رئيـس أمـان المناقشات وقدم تقرير موقف أعدته أمــان عــن الاســتعدادات المصرية للحرب. وقد عرضت خلال هذه الجلسة ســيناريوهات عن مسيرة الحرب تطابقت مع ما حدث بعـــد ذلـك بسـاعات معدودة مما يشير إلى أن الخطـط المصريـة كـانت معروفـة للإسرائيليين. وقد قيل خلال هـــذه الجلسـة :"سـيبدأ الـهجوم

المصري بقصف مدفعي ثقيل مع استخدام الطائرات لقصف أهداف في سيناء، وبعد ذلك تبدأ عمليات العبور. وسوف تقام خمسة كباري في مواجهة محاور المعابر ولكن سيتم العبور بواسطة ثلاثة منها فقط.

وسيبذل المصريون في المرحلة الأولى جهودا لاحتلال مساحة من الأرض على عمق عشرة كيلومترات تقريبا داخل سيناء وعندما يصل الجيش المصري إلى هذه العمق، المحدد في الخطة، سيحاول الصمود وتثبيت أقدامه في مواقعه، وتحدد الخطوات التالية بناء على النتائج التي ستتحقق في المرحلة الأولى. وستؤمن الصواريخ سام ٢، وسام ٣، وسام ٦ القوات في وجه أي هجمات جوية. وستقصف شرم الشيخ من الجو وبعد ذلك ستحاول وحدات من الكوماندو الاستيلاء عليها [١٨].

وليس من الدقة أن نقول بأن جيش الدفاع لم يستعد لاحتمال أن يحاول المصريون القيام بعملية عسكرية محددة هدفها الأساسي تحقيق كسب سياسي وأخر معنوي وليس بالذات تحقيق كسب إستراتيجي. ولكن يجب أن نفرق بين وجود خطط عسكرية (التي يقوم كل جيش بوضعها لمواجهة جميع الاحتمالات بما في ذلك الأقل من حيث إمكانية الحدوث) وبين

إيمان الزعامة السياسية العسكرية في إسرائيل بأن العدو سيخاطر حقا ويقوم بعملية ذات إمكانيات تحقيق ضئيلة من الناحية العسكرية. وعندما اندلعت الحرب ؛ تبين أن الإسرائيليين لم يفهموا النظرية الاستراتيجية المصرية. فمثلا كتب الجنرال احتياط بروفيسور ماتى بيلد في اليوم الرابع للحرب ما يلي : "الشيء المستحيل ظهر إلى الوجود وتحقق. ومرة أخرى وجدت إسرائيل وجيرانها العرب أنفسهم في حالة حرب. ولكن ما كان على مصر وسوريا أن تهرولان نحو استئناف الحرب لافتقارهما أي فرصة لتحقيق أي كسب خلال هذه المغامرة وفي احسن الأحوال ستخسران مرة أخرى القدرات العسكرية اللتين نجحتا في تجميعهما منذ حرب الأيام الستة، ولكن يمكن أن نفترض إنهما سيخسران الكثير بسبب تدنى قدراتهما العسكرية بالمقارنة بإسرائيل ولان فرصهما للاستفادة من الحماية الروسية في حالة تعرضهما لهزيمة قاضية ؛اقل من تلك التي كانت لديهما قبل ست سنوات. كما أن الاتحاد السوفيتي وصف قيام مصر وسوريا بشن الحرب بأنها خطوة غير مرغوب فيها وعمل مجنون. وإذا لم نضع في الحسبان، حقا، تعقد العلاقات والحسابات والاعتبارات المسيطرة على منظومة العلاقات

العربية،فلا يمكن اعتبار استئناف الحرب من جانبها إلا عملا مجنونا. والشيء الواضح الآن هو أن هذا العمل الذي قامت به الدولتان الجارتان لنا سيقودهما حتما إلى كارثة كبرى تفوق كل ما يتصوره قادتهما. وإذا لم تضف الى الهزيمة العسكرية أي نتيجة أخرى، فإنها ستؤدى إلى حدوث تغيرات بعيدة المدى في بنية النظامين الحاكمين في سوريا ومصر وفي منظومة العلاقات بينهما وبين العالم أجمع وبينهم أنفسهم[١٩].

ويمكن أن نشبه مدى عمق عدم فهم الزعماء في إسرائيل لأهداف حرب يوم الغفران بعدم فهم موشيه ديان للأهداف التي وضعها السادات لتلك الحرب. وقد وردت الكلمات التالية في لقاء مغلق جمع ديان ورؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية وأقيم بعد خمسة أيام من اندلاع الحرب وبعد أن توضحت الخطوات المصرية الرئيسية في ميدان القتال " "اعتقد بأنه إذا لم يصل السادات خلال هذا الهجوم إلى منطقة الممرات، فليس فقط أنه لن يستطيع الاستيلاء على إسرائيل بل لن يستطيع الاستيلاء على سيناء أيضا ولن يحرر الأرض المحتلة بعد ست سنوات استغرقها في الإعداد لهذه الحرب الكبيرة كما لن يصل إلى

تحقيق هدفه المحدود والذي لا يتجاوز مسافة ٢٠كيلومـــترا. ولا أظن انه سيحقق أي كسب شخصي من وراء ذلك".[٢٠]

ورغم المعلومات المفصلة التي توافرت لإسرائيل حـــول التخطيط المصري للحرب، فلم تعكس الخطوات الإسرائيلية التي اتخذت خلال الأيام الأولى للحرب رد الفعـــل المناسـب لـهذه المعلومات. وبعد أيام معدودة من اندلاع الحرب وحيث أظـــهر المصريون تمسكا قويا بخططهم الأصلية، كان رئيس الأركـــان يتصرف وكأن الخطط المصرية غير واضحة له.

وذهب رئيس الموساد تسفى زامير في التاسع من أكتوبـــر إلى مكتب رئيس الأركان لكي يقدم له ملاحظاته حول النظريـــة العملية لجيش الدفاع في إدارة المعارك في الجبهة الجنوبية وقال له " يبدو لى أنهم ينطلقون إلى الأمام حيث ســـتصطدم رأســهم بالجدار ". ولم يفهم رئيس الموساد لماذا يفعلون ذلك. لقد قمنـــا بتقييم خطة الحرب المصرية قبل أشهر عديدة ولو تعمق القـــادة لدينا في دراسة هذه الخطة لتوصلوا إلى الاستنتاج القـــائل "بـــأن هذا بالضبط ما يريده المصريون". ثم يجـــئ زامـــير الآن إلـــى رئيس الأركان ليقول له " إنـــه لا يعـــرف عـــن هـــذه الخطـــة شيئًا"[٢١]. ولدينا الآن معلومات شاملة ومفصلـــة عـــن الخطـــة

المصرية وأسلوب تنفيذ حرب يوم الغفران[٢٢] والتي يمكن من خلالها استرجاع تفاصيل الخطة والاعتبارات المختلفة بالنسبة لكل مرحلة من مراحل المعركة. واحتوت الخطة على ثلاث مراحل وهى :

المرحلة الأولى : وتتضمن عبور القناة وإقامة رؤس كباري على الجانب الشرقي للقناة.

المرحلة الثانية : وهى مرحلة التوقف الفعلي عن التقدم، حيث يتم خلالها صد الهجمات الإسرائيلية المضادة.

المرحلة الثالثة : وتشمل الاستيلاء على منطقة الممرات في سيناء وعلى المحور الساحلي بواسطة الجيوش التي شاركت في العبور وبعد دعمها بقوات إضافية من احتياطي القيادة العامة بالإضافة إلى قوة مهام مستقلة.

وحدد للمرحلة الثالثة أن تنفذ " كاستغلال للعبور " وبعد أن تبين فقط حدوث ضعف ملموس في قدرات جيش الدفاع. واعتبرت القيادة السياسية في مصر أن هدف الحرب سيتحقق إذا

نجحوا في الاستيلاء على قطاع ضيق من الأرض في الضفة الشرقية وتمسكوا به وانزلوا خسائر جسيمة في صفوف القوات الإسرائيلية التي تحاول مهاجمة التشكيلات المصرية. وقد وصف رئيس الأركان المصري الفريق الشاذلي نظرة المخططين المصريين لإمكانية الاستيلاء على سيناء على النحو التالي :- " تركز الجانب الأكبر من النقاش على المرحلة الأولى (العبور) بينما كان النقاش يمر سريعا عند مناقشة المرحلة الثانية وكانوا يقولون بأنه سيتم تنفيذ هذه المرحلة بعد" التوقف الفعلي عن التقدم".

ومعنى المصطلح العسكري" التوقف الفعلي عن التقدم "، هو التوقف إلى أن تتغير الظروف التي أدت إلى ذلك (التوقف). ويمكن لهذا التوقف الفعلي أن يستمر لعدة أسابيع أو أشهر أو أكثر من ذلك، ولم أتوقع على الإطلاق أن يطلبوا منا أن ننفذ هذه المرحلة. وكان يشاركني في هذا الشعور قادة الجيوش وكذلك وزير الدفاع [٢٣]. (تتعارض هذه النظرية الاستراتيجية بجلاء مع المبادئ الخاصة بالنظرية السوفيتية والتي تدرب بموجبها قادة الجيش المصري والتي تركز على الاستمرار في

الاندفاعة الهجومية إلى ان يتحقق الهدف الفعلي، أي أن تلك النظرية كانت تتطلب الاستيلاء على ممري متلا والجدي).

وتفجرت في أعقاب الحرب مناقشات بين قادة جيش الدفاع حول مدى توافق الخطط العملية لجيش الدفاع مع التحدي الذي وضعه أمامه الجيشان السوري والمصري. واحتد النقاش بصورة خاصة حول جبهة سيناء حيث ادعى كل من الجنرال احتياط حاييم برليف والجنرال احتياط "أدان" ان الخطة الإسرائيلية كانت متناسبة مع الظروف وأن مسئولية حدوث الفشل تقع أساسا على العيوب عند التنفيذ. وذكر رئيس الأركان في فترة حرب الاستنزاف أن خطة "برج الحمام" لم تنفذ وقال بان القوات لم تنتشر في الموعد المناسب وفقا للنظرية العسكرية الإسرائيلية، وعلى ذلك لا يجب القول بان "التصور" لم يصمد أمام الاختبار بل أنه لم يتعرض للاختبار على الإطلاق. ومن جانب أخر هاجم الجنرالات تل و شارون الخطة وقالا بأنه من الأفضل أن " الفرقة المدرعة" لم تستخدم وفقا لخطة "برج الحمام" لأنه لو عملت القوات وفقا لهذه الخطة لربما منيت القوات المدرعة بخسائر جسيمة تفوق ما منيت به في المرحلة الأولي.

(في الحقيقة لم يكن هذا نقاشا جديدا بل كان استئنافا للنقاش الذي جرى خلال حرب الاستنزاف بين كبار رجال الأمن حول النظرية المبدئية بالنسبة لخط بارليف. وأيد وزير الدفاع فى ذلك الحين موشيه ديان، ورئيس الأركان فى ذلك الحين أيضا حايم برليف فكرة ان يكون الخط الدفاعي على امتداد خط الماء. ورأى ضباط كبار آخرون ومنهم الجنرال إسرائيل تل ضرورة الابتعاد عن خط المياه وملاقاة الجيش المصري في معارك مدرعات متحركة تدور في عمق المنطقة وبعيدا عن مدى فاعلية مظلة الصواريخ المصرية).

ولكن النقاش شوه الحقيقة الرئيسة وهى :

لم يكن في "خطة برج الحمام" او التنفيذ المعيب الذي حدث خلال القتال ذاته، الرد المناسب على قوة القوات المهاجمة وأسلوب عملها. وفى هذا الشأن تبدو تقديرات الجنرال أدان للأمور ذات مغزى حين قال :

"حسب اعتقادي فانه حتى لو قمنا بضربة جوية مسبقة وحتى لو نشرنا قواتنا الأمامية وفقا لخطة "برج الحمام" وحتى لو لم نرتكب الأخطاء في توزيع وتشتيت الدبابات، فما كان في وسعنا أن نمنع المصريين من الاحتفاظ بمساحات واسعة في

الضفة الشرقية. والسبب في ذلك يعود إلى البنية غير المتوازنة لقوات "برج الحمام" وعدم توافر قوة مشاه ومدفعية بالكم المطلوب. وللدبابات مزايا عديدة ولكن لها عيوبها أيضا وبخاصة لدى تعاملها مع جنود مشاه مبعثرين. كما أن قدرة الدبابة على "الرصد" محدودة وسلاحها الرئيسي وهو المدفع، فعال ضد الأهداف الصعبة فقط وعند القتال في مدى محدود، وإنه عند الهجوم تبرز أهمية جنود المشاة والمشاة الميكانيكي الذين يرافقون الدبابات ويكونوا قادرين على الرد النيراني والرصد الذي يشمل كل الاتجاهات في آن واحد.

ولو تحاشينا استخدام الدبابات بصورة مبعثرة واستخدمناها في تجمعات كبيرة وفى قطاعات محدودة لربما أمكننتا تحقيق مكاسب في هذه القطاعات.

ولكن المصرين وكما هو معروف، تحركوا على امتداد الساعة ورسخوا أقدام جنود المشاة في مواقعهم في قطاعات عديدة أخرى وعندما كانت الدبابات تصل إليهم كانت تصطدم بالألغام وبنيران المدفعية الثقيلة ورشقات من الصواريخ. ولم يكن في مقدور الدبابات التي كانت تفتقر إلى عناصر من جنود

المشاة والمدفعية الثقيلة وسلاح المهندسين، التغلب علـــى جنـــود المشاة الذين توافرت لهم الفسحة الزمنية لترسيخ أقدامهم [٢٤].

ويجب أن نضيف إلى الانتقادات التي ساقها الجـنرال أدان أن نشر المدرعات الإسرائيلية وفق الخطة الموضوعة لم يناسـب المعلومات التي توفرت لدى جيش الدفاع عن أسلوب العمل الذي سيطبقه المصريون، إذا عبروا القناة وقاموا بعمليات واسعة.

وقد استندت خطة "برج الحمام" على المبدأ القائل " نحـــن ننتظرهم حين يهاجمون "، أي استندت على القتال المدرع الـــذي يدور في القطاع الفاصل مـــا بيـــن قنـــاة الســـويس والطريـــق العرضي. ويحدث ذلك في الوقت الذي أشارت فيـــه تقديـــرات "أمان" إلى أن المصريين خططوا لقتال يقوم أساسا (وعلى الأقــل خلال المراحل الأولى للحرب) علـــى قتـــال المشـــاة المدعـــوم بالمدفعية الثقيلة المكثفة، وعن طريق ذلك تقوم القوات المهاجمـــة باحتلال قطاع ضيق يمتد إلى مئات الأمتار فقط أو لعدة كيلـــوا مترات في الضفة الشرقية، ثم تتحصن وتنتظر هجوم المدرعـــات الإسرائيلية. ويحدث ذلك أيضا خلال انتشار القـــوات المصريـــة في وضع دفاعي مدعوم بحماية من الصواريخ.

ولم تتوافق نظرية جيش الدفاع بشأن المهام المحددة للمواقع الأمامية خلال الحرب مع تقديرات المخابرات. كما لم تتوافق الخطة الدفاعية فى خط المواقع الأمامية الإسرائيلية مع إمكانية حدوث هجوم مصري ضخم للاستيلاء على مساحات أرضية في المعارك التي تدور على خط المياه. (٢٥)

ويعكس أسلوب عمل المدرعات في الجبهة الجنوبية خلال اليومين الأولين للحرب وكذلك المحاولات المتكررة للوصول إلى خط المياه عن طريق دبابات متفرقة، ردود فعل آلية جربت في حرب الاستنزاف ولكن لا تشير إلى وجود نظرية قتال متحركة. وتوافق أسلوب استخدام قوة صغيرة ترابط في المواقع الأمامية وكذلك أسلوب نشر المدرعات بأعداد محدودة لخوض القتال الذي يدور بالقرب من خط المواقع تلك وتواجد مناطق واسعة بين المواقع الأمامية خالية من القوات، وكذلك أماكن تواجد مقار القيادات وأسلوب انتشارها، توافق كل ذلك مع نظرية عسكرية تقوم على وجود خط معين من الإنذار المبكر ينتهي دوره بعد انتهاء مرحلة العبور (لم تنظر القيادات العليا في القيادة العامة أو في قيادة تشكيلات المدرعات الى المواقع الأمامية كمكون له قيمة هامة في الحرب الشاملة. كما أن الخطة

"سيلع" (الصخرة) التي تضمنت استخدام ثلاث فرق عسكرية لم تستند على هذه المواقع الأمامية. أما على المستوى العلمي والتكتيكي فإن القائدين الكبيرين اللذين عملا في الأيام الأولى للحرب في القناة وهما الجنرال افراهام مندلر " والجنرال " كلمان مجان" نظرا إلى تلك المواقع الأمامية كما لو أن الأمر مجرد "حرب استنزاف. وأسباب ذلك معقدة، كما ذكرنا، وتحدثنا عن بعضها في مناسبات أخرى، وهناك سبب محتمل آخر يميلون إلى تجاهله بصورة عامة، وهو سبب حسي - رمزي. فقد كانوا ينظرون إلى خط المواقع الأمامية خلال حرب الاستنزاف كما لو أنه كان خط تجمعات سكانية. فالتجمعات السكانية تحظى بالمزيد من القيم وتعلق عليها الآمال، ولا ينظرون إليها وفق قيمتها الاستراتيجية فقط وبدلا من إصدار أوامر فورية بإخلاء هذه المواقع الأمامية صدرت أوامر للدبابات بتخفيف العبء الواقع عليها).

ومن المجالات الحاسمة في الحرب والتي استندت خلالها نظرية الحرب الإسرائيلية على افتراضات خاطئة دفع فيها الثمن الجسيم، مجال القتال الجوى. فقد نجح جيش الدفاع خلال حرب الأيام الستة في أن يحسم، وبدرجة كبيرة ، نتائج الحرب حين

قام بالضربة الجوية المسبقة ولم يحدث، حسب النظرية الامنية لجيش الدفاع عشية حرب يوم الغفران، أي تغيير أساسي يمكن أن يزعزع القدرات العملية للسلاح الجوى في تحقيق الحسم خلال الحرب القادمة أيضا. وقد قدم قائد السلاح الجوى الجنرال احتياط مردخاى هود والذي ترك عمله في مايو ١٩٧٣ نموذجا لهذه النظرية حين قال :

"عند اندلاع حرب بين تشكيل هجومي واخر دفاعي يكون للتشكيل الهجومي ميزة مسبقة. ولو كان على أن اقدم الدعم في ظل العمل بتشكيل دفاعي على غرار منظومة الصواريخ لما كنت سأثق في تحقيق النصر".

- **سؤال :** " ألم تخش الصواريخ التي دفعوا بها إلى منطقة القناة في أعقاب وقف إطلاق النار ؟ ".
- **جواب :** " لم اعتبر ذلك كارثة ولا أخشى الآن أيضا حقيقة أن تكون الصواريخ المتواجدة في مناطق مجاورة للقناة هدفا بالنسبة لنا"[٢٦].

ولكن برز ضعف هذه النظرية خلال المرحلة الأخيرة من حرب الاستنزاف. فخلال هذه الحرب وبدلا من اعتبار السلاح الجوى أحد عناصر الحرب ضد المصريين إلى جانب استخدام

قوات برية ومدرعات بأحجام كبيرة لتحطيم الخط المصري بما يحوى من مدفعية ثقيلة ومدرعات، فانهم القوا على السلاح الجوى مسئولية القيام بجميع المهام واعتبروا ذلك الحل الوحيد"[٢٧].

وهكذا ازدادت في أعقاب حرب الاستنزاف الآمال التي علقها الجيش على السلاح الجوى لكي يكون قادرا - خلال الحرب القادمة أيضا - على العمل كمدفعية ثقيلة وان يقدم الدعم اللصيق للقوات البرية. ويحدث ذلك رغم ان حرب الاستنزاف أبرزت المصاعب المتزايدة أمام تحقيق حرية العمل للسلاح الجوى في الجبهة بسبب حوائط الصواريخ.

وفى صيف ١٩٧٣ نشر نظام صاروخي للدفاع الجوى من دمشق فجنوبا صوب درعا. وهكذا أصبحت هضبة الجولان جميعها منطقة مغطاة بالصواريخ وتضاءلت مساحة العمل أمام السلاح الجوى بنسب كبيرة واستند الدفاع الإسرائيلي في مرحلة صد الهجوم السوري، على الدعم الفوري الذي يقدمه السلاح الجوى، إذ لم تتواجد على امتداد الخط الأمامي ذاته سوى ٧٠ دبابة تقريبا وقوة مشاه محدودة وما بين ٣-٤ بطارية مدفعية. وذكر يتسحاق حوفي قائد المنطقة الشمالية خلال حرب يوم

الغفران : " خشينا من أن يكون السلاح الجوى قد فقد حريته في العمل وقد حدث ذلك خلال حديث جرى مع قائد هـذا السلاح وأجرينا مناقشات حول طرق التغلب على هـذه المشكلة. بل وأجرينا سلسلة كاملة من المناورات مع رجال السلاح الجوى[٢٨].

وفى مقابل ذلك، وكما ذكر شهود عيان، أعلن قائد السلاح الجوى فى ذلك الحين الجنرال بنيامين بيلد "بان الدفع ببطاريات الصواريخ السورية صوب هضبة الجولان سيفيد السلاح الجوى. [٢٩]

وذكر رئيس الأركان في مناقشة جرت في أواخر سبتمبر ١٩٧٣ حول احتمال حدوث هجوم سوري مفاجئ في هضبة الجولان بأن نظام الدفاع الجوى الجديد لدى سوريا لم يسلب من السلاح الجوى القدرة على التغلب عليه " في نصف يوم"[٣٠].

واقترح رئيس الأركان على الحكومة في صبيحة السادس من أكتوبر أن توجه ضربة وقائية إلى القوات الجوية السورية وناقشت الحكومة هذا الاقتراح ورفضته. وكما ذكر جزء من الذين حضروا هذه المناقشات فان النقاش تركز على الاعتبارات السياسية.[٣١] فقد وضعوا فى الاعتبار المخاطر السياسية وليس

الإنجاز العسكري المرتقب. وقيل بأنه حتـــى لـــو قـــام العـــرب بالمبادأة وشنوا الحرب، فإن ذلك لن يوفر لهم مزايا تطغى علـــى الأضرار السياسية التي يتوقع أن تحدث لإسرائيل إذا شنت حربا وقائية. ويمكن تفهم الموافقة الكاملة التي منحها وزراء الحكومـــة الذين شاركوا في هذه الجلسة ومنهم وزراء مـــن ذوى الخلفيـــة الأمنية على رفض اقتراح رئيس الأركان وذلـــك علـــى خلفيـــة الوعي السياسي الاستراتيجي الأكثر عمقا والـــذي ترســـخ منـــذ حرب الأيام الستة والذي تجسد أيضا في مصطلحات مثل "حـــدود يمكن الدفاع عنـــها" أو "حـــدود أمنيـــة". وقـــد ظـــهرت هـــذه المصطلحات المتداخلة التي لا ترد فـــي معـــاجم المصطلحـــات العسكرية، بعد حرب الأيام الستة على المستوى الحكومي وذلـــك كحل وسط بين النظريات السياسية المختلفة في فترة ما بعد هـــذه الحرب. ولكن فســـرت المغـــازي العســـكرية الرئيســـية لتلـــك المصطلحات كمسلمات تقول بأنه ليس هناك ما يدعو الانطـــلاق من هذه الحدود صوب تنفيذ هجمات مسبقة. ولذلك اعتبر اقتراح رئيس الأركان مجرد " صوت مدوي" ينطلق من تلـــك الخلفيـــة المسيطرة على التفكير الاستراتيجي الإسرائيلي [٣٢].

الآن وعندما نقوم بدراسة الجانب العسكري للمعارك بعد كل ما حدث، لا يمكن تحاشى إثارة عدة علامات استفهام أمام منطقية هذا الاقتراح من الناحية العسكرية. لقد كانت لدى جيش الدفاع معلومات تقول بان سوريا ومصر قامتا منذ حرب الأيام الستة ببناء دشم تحت الأرض لحماية طائراتهما وقامتا أيضا بتحسين وسائل الدفاع عن القواعد الجوية لديهما حتى أن الهجوم عليها كانت احتمالات نجاحه محدودة. وكل ما كان في الوسع تحقيقه من مثل هذه الهجمات هو وقف عمل ممرات الإقلاع لعدة ساعات وإلحاق الضرر بالمنشآت. ومن الصعب إذن أن نفهم المنطق العسكري الذي يقف وراء الهجوم على هذه الأهداف ضمن عملية هجوم وقائية أو كوسيلة لتحقيق ميزة استراتيجية حاسمة خلال المرحلة الأولى للحرب (مما يؤكد خطأ الجانب العسكري لتلك المعادلة عند دراسة التصور الخاطئ، ذلك الحوار الذي أجراه كاتب هذه السطور مع الوزير في ذلك الحين موشيه كول في التاسع والعشرين من يوليو ١٩٧٩. حقا لم يشارك الوزير كول في النقاش الذي دار حول القيام بضربة وقائية في صبيحة السادس من أكتوبر. ومع ذلك كان عضوا في اللجنة الوزارية لشئون الأمن واشترك في مناقشات أمنية عديدة

وأبدى درجة من اليقظة تجاه تلك القضايا قبل ان تندلع الحــــرب وبخاصة في الفترة التالية لها. ورغم كل ذلك دهش الوزير كـول عندما سمع مني وبعد ست سنوات من الحرب ان الـــهدف مــن الهجمة الوقائية التي اقترحوا أن يقوم السلاح الجوى بها لم يكــن ضرب الحشود العسكرية المستعدة للهجوم، وكمـــا ظــن كــول طوال هذه الفترة، بل كان الهدف هو ضرب أهداف في العمــق. وقال لي موشيه كول أيضا بأنه عاد وأكد خلال المناقشات التــي جرت داخل الحكومة فيما بعد، بأنه لو شارك في تلــك الجلســة لمنح تأيده للاقتراح الخاص برئيس الأركان وانه يرى بأن قــرار عدم تنفيذ الهجوم الوقائي كان خاطئا. ويجئ كل ذلك من خـــلال اعتقاده بأن الهدف من الهجوم كان إفساد مخططات القوات التــي كانت في وضع الاستعداد للهجوم على إسرائيل).

وقد صاغ قائد السلاح الجوى خلال حرب يـــوم الغفـــران الجنرال بيلد، في محاضرة ألقاها في القدس في أكتوبـــر ١٩٧٥، في إطار ندوة حول حرب يوم الغفران، موقفـــه تجـــاه التـــأثير المحتمل للضربة الوقائية فيما لو نفذت، بألفاظ غـــير هجوميـــة وتختلف عن تلك التي انتشرت بين المشاركين في الجلسة التـــي عقدتها الحكومة في صبيحة السادس من أكتوبر. وقد ذكر بيلد: "

كانت تصرفات القادة المصريين متأثرة بدرجة معينـــة وربمـــا بصورة حاسمة بالحقيقة القائلة بأن مخططـــهم قـد كشـف وان المفاجأة من جانبهم لم تعد مفاجأة وأنني اعتقد بان بعض الأمــور ربما كانت ستتغير من الناحية الشعورية والنفســية، لــو قــامت القوات بتنفيذ الخطط التي أعدت مسبقا. ولو حدث ذلك لـــبرزت حالة من البلبلة ولا أتجاسر على القول بأنهم كانوا ســيتراجعون عن الحرب. في الحقيقة لست أدرى (٣٣).

وفى حرب يوم الغفران لم يقم السلاح الجوى الإســرائيلي بتدمير السلاحين الجويين لدى مصر وســـوريا علـــى الأرض، ولكنه حقق التفوق الجوى في المعارك الجوية وكـــانت عمليـــة الدفاع عن سماء الدولة خلال الحرب تتم بصورة هرمية، كمـــا كانت الخسائر التي ألحقتها الأسلحة الجوية العربيـــة بـــالمؤخرة المدنية في إسرائيل لا تذكر. وتوافر التفوق الجوى الإســـرائيلي في جميع ساحات القتال الجوى خارج سماء إسرائيل ولم تحـــدث حالة واحدة خلال الهجمات التي قام بها الســـلاح الجـــوى فـــي أعماق الخصم وبخاصة في العمق الســـوري نجحـــت خلالـــها القوات الجوية العربية في إحباط المهمة.

ولكن ذلك لا ينطبق على مجال"الدعم اللصيق " للقوات البرية وهو مجال يؤثر تأثيرا حاسما على مسير المعركة في أيامها الأولى. وقد أسقطت حوالي ٤% من طائرات السلاح الجوى في اليومين الأولين للقتال دون أن تتحقق بالكامل مهمة منع استمرار عملية العبور ووقف تقدم القوات المصرية والسورية.

وثبت عدم فاعلية الهجمات البرية لأن المناطق المستهدفة كانت تحت حماية بطاريات الصواريخ ولم تستطع الطائرات الاقتراب وتحقيق الدقة في إصابة أهدافها.

كما قيدت القدرة على إدارة المعارك الجوية ضد الطائرات المعادية التي هاجمت قواتنا فى خط الجبهة. وفى اليوم الثاني للحرب هاجم السلاح الجوى الكباري الأربعة عشر التي أقيمت لنقل المدرعات على امتداد قناة السويس. ولكن لم يحقق هذا الهجوم المركز الهدف الذي توقع رئيس الأركان تحقيقه. ولم يخف رئيس الأركان خيبة أمله وقال :"لقد دمرت سبعة كباري وغمر السرور الجميع، ولكن عادت هذه للعمل في اليوم التالي. ودمروا كل كوبري عدة مرات ولكن لا زالت تعمل الآن على امتداد القناة أحد عشر كوبريا. يلقون قنابل زنة طن

لكل واحدة ويدمر أحد أجزاء الكوبري، وبعد ساعة يحضـــرون جزءا جديدا حيث يعود الكوبري إلى العمل [٣٤].

وتبين في مساء اليوم الأول للقتال أن السلاح الجوى لـــن يستطيع تحسين قدراته في دعم القوات الأرضية دون أن يدمـــر قبل ذلك أنظمة الدفاع الجوى وبخاصة الصواريخ المنتشرة فـــي منطقة القتال. ونفذ فى صباح السابع من أكتوبر هجوما جويـــا على منظومة الصواريخ المصرية. وشملت المرحلة الأولى مـــن هذا الهجوم ضرب المطارات والمدافـــع المضـــادة للطـــائرات، وأمكن تحقيق نسبة نجاح غير قليلة. ولكـــن اســـتدعى الســـلاح الجوى بعد ذلك "لإنقاذ الموقف في الشـــمال" وبذلـــك لـــم تنفـــذ الهجمات الجوية وفق الصورة التي أعدت مسبقا. ثم تعمق بعـــد ذلك الشعور القائل بأنه بدون الحصول على دعم مـــن القـــوات المدرعة والمدفعية الثقيلة لتدمير منظومة الصواريخ، فإن الثمـــن الذي سيدفعه السلاح الجوى نظير إسكات بطاريات الصواريـــخ قد يكون باهظا للغاية.

ولم تُحل هذه المعضلة فـــي الجبهـــة الجنوبيـــة إلـــى أن استطاعت قوات جيش الدفاع وخلال المراحل المتأخرة للحـــرب أن تشق للطائرات ممرات آمنة علـــى الأرض، أي ان تـــهاجم

بالمدرعات بطاريات الصواريخ وتبطل مفعولها وتفتح بذلك ممرات جوية يستخدمها السلاح الجوى (ومع ذلك يجب أن نشير إلى حالتين حقق خلالهما السلاح الجوى مكاسب هامة على مستوى دعم القوات البرية في مناطق تحظى بحماية بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات. ففي الجولان قام السلاح الجوى في صبيحة السابع من أكتوبر بعدة عمليات في جنوبي الهضبة وهى منطقة لم تكن تواجه القوات السورية المتقدمة فيها سوى قوات مدرعة إسرائيلية محدودة وقام الدعم الجوى بدور حاسم في إحباط الخطة السورية في الاندفاع من منطقة "جملا" المرتفعة صوب وادي البطحة وعين جات. كما أن حقيقة أن محور بالوظه - رمانة - القنطرة في الجبهة الجنوبية ظل مفتوحا تعود بدرجة كبيرة إلى الدعم الجوى الناجح في منطقة بور سعيد).

ويمكن التأكيد على بعد العمق المتمثل في المفاجأة التي لحقت بإسرائيل، ليس فقط فيما حدث من جانب الخصم أو عند دراسة قواتنا العسكرية مقارنة بقوة العدو، بل عند النظر إلى جوهر المفاجأة التي حدثت في الحرب ومقارنتها بتاريخ النزاع الإسرائيلي العربي. فقد شكلت حرب يوم الغفران بعدا جديدا عند مقارنتها بسلسلة الحروب التي خاضتها إسرائيل منذ حرب

١٩٤٨. فهذه هي المرة الأولي التي خاض خلالها جيش الدفـــاع حربا جاءت بدايتها في صورة هجوم معاد بكامل قوته. وكـــانت حرب ١٩٤٨ قد بدأت حين قـــاتلت القـــوات الإســـرائيلية فـــى مرحلتها الأولى ضد قوات غير نظامية. وكانت عملية التجنيـــد الكبرى للمجتمع اليهودي قد نفذت قبل الغزو الـــذي قـــامت بـــه الجيوش العربية النظامية في مايو ١٩٤٨. وبدأ قبل ذلك تدفـــق الأسلحة ضمن الصفقة التي وقعت في تشيكوســـلوفاكيا. وقبـــل الغزو الذي قامت به الجيوش العربية أمكن تحقيق مكاسب هامـــة على مستوى تحسين وضعنا الجيو - استراتيجي إلـــى أن قمنـــا بعملية "تحشون" وأمكن خلال اشهر القتال الستة التـــى انقضـــت منذ الثلاثين من نوفمبر ١٩٤٨ اكتســـاب خـــبرة قتاليـــة هامـــة وتدعمت تدريجيا الأطر العسكرية وتبلورت أنمـــاط وتكتيكـــات قتالية تتفق وظروف تلك الحرب. وكنا المبتدئين في حرب سيناء وقمنا بهجوم مباغت وبذلك فرضنـــا علـــى الخصبـــم "ظـــروف البداية". وفى حرب الأيام الستة جرى استغلال فترة الانتظار في تحسين استعدادات جيش الدفاع لدخول الحرب المتوقعة. وعندمـــا بدأت الحرب بهجمات إسرائيلية، كانت الإنجازات التي حققناهـــا في المرحلة الاستهلالية للحرب هى التي حسمت مصـــير تلـــك

الحرب. وبدأت حرب الاستنزاف بمبادرة من جانب مصر ولكن حدثت تطورات تدريجية كما لم تستخدم كامل القدرات المصرية ضد إسرائيل في ذروة هذه الحرب.

إن الخبرة التاريخية لجيش الدفاع لم تحصنه ضد احتمال حدوث حرب يقوم بها العدو بكامل قوته. ويستدل من تجارب شعوب أخرى أنه تبرز في مثل هذه الأوضاع فترة "تعود" صعبة ولا يمكن تجنبها تقريبا.

ومن الصعب التنبوء المسبق لتطور مثل هذه الحرب وبخاصة عندما يكون العدو هو الطرف المبادر وهو الذي يفرض خطواتها الأولى. وتحدث عملية بلورة " المدارك " خلال الحرب ذاتها ويتطلب الأمر فترة زمنية إلى أن يتطور التصور المناسب للوضع الجديد. ويمكن أن يؤدى التدريب العسكري المسبق والمناورات التي تجريها القيادة العامة والخطط المسبقة إلى دعم مسيرة "التعود" تلك ولكنها لا يمكن أن تحل محلها. وفترة "التعود" تلك مرهونة بالموائمة السريعة لما يظهر خلال الحرب في صورة أخطاء في التخطيط العملي وفى تدريب القوات وفى التخطيط العملي وفى الحسابات اللوجستية المسبقة. ومن هذه الناحية لا تعتبر حرب يوم الغفران ظاهرة تجسد عدم

الفعالية التنظيمية، افتقار التنسيق وإهدار الموارد وتغلب الجو القاتم الذي يخرج عما هو مألوف فى الحروب " الكلاسيكية ".

وهذا الجو القاتم الذي يسود العلاقات بين القادة وتبادل الاتهامات عن مسئولية ما حدث من جوانب فشل هي أمور تلازم الحروب التي توصف بأنها شاملة وبخاصة في مراحلها الأولى وتلازم التطورات التي لا تتفق مع التخطيط المسبق. فالاتهامات المتبادلة والجو القاتم هي أمور كانت موجودة خلال حرب ١٩٤٨ أيضا ولكن الأسطورة التي كانت تمثلها تلك الحرب طغت على كل شئ. وكانت هذه الأمور متواجدة، وإن كان بصورة اقل، في سائر الحروب التي خاضتها إسرائيل، ولكن الجو المبهج الذي يبرز في أعقاب الانتصارات ينحى جانبا كل تلك الاتهامات المتبادلة. فالفشل أو أشباه الفشل هى التربة المناسبة لظهور حالة "حرب الجنرالات".

إن الافتراض القائل بأن الجيش الإسرائيلي هو بمثابة "محمية طبيعية" داخل المجتمع الإسرائيلي وانه محصن ضد نقاط الضعف في المجتمع، لم يتبدد بدرجة كبيرة لآن جيش الدفاع لم يتعرض بالكامل - أو وحداته المميزة - للاختبار المنهك الذي تمثله الحرب الكلاسيكية منذ حرب ١٩٤٨.

وترسخت داخل المجتمع الإسرائيلي ولسنوات عديــــدة صــورة معينة، وواقعية في ظروفها الخاصة فقط، ليس فقط عن جيش الدفاع بل أيضا عن جوهر الحرب.

ويمكن إذن تفسير صدمة حرب يوم الغفــران بــأن هــذه الصورة التي تكونت عن طبيعة الحرب تبددت خـــلال الأربـــع والعشرين ساعة الأولى من المعارك.

ولن نتناول في هذا الكتاب وصف سير المعارك إلـــى أن انتهت الحرب. ومع ذلك فان أوصافنا لن تكون كاملة، إذا لـــم نشر إلى سمة هامة برزت خلال المراحل المتأخرة من الحـــرب ولكنها تتصل مباشرة بالموضوع الذي تناولـــه، ونقصـــد بذلـــك معدل " الصحوة " التي شاهدها جيش الدفـــاع. ولقــد توفــرت لإسرائيل خلال حرب يوم الغفران القدرة على قـــراءة الوضـــع وبسرعة إلى جانب الحنكة والارتجـــال والجــرأة لـــدى القـــادة المحاربين. وكانت تلك عوامل هامة فـــي الصحـــوة العســكرية الرائعة وفى النجاح فى تحويـــل عجلـــة الحـــرب مـــن وضـــع استهلالي خطير إلى وضع تحقيق مكاسب عسكرية في نهايتها.

ويبرز حجم الإنجاز الإسرائيلي إذا قارنا المـــدة الزمنيـــة التي تحققت خلالها حالة "الصحوة" تلك، بمـــا حـــدث لشـــعوب

أخرى تعرضت لمفاجآت أساسية مثل معدل الصحوة السوفيتية بعد مفاجأة "بربا روسا" والصحوة الأمريكية في أعقاب بيرل هاربور. وقد نفذ الإسرائيليون الهجوم المضاد الأول - الذي فشل - في الجبهة الجنوبية في الثامن من أكتوبر، أي بعد يومين من حدوث المفاجأة. وفي الجبهة الشمالية استكملت قوات جيش الدفاع حتى العاشر من أكتوبر إعادة الاستيلاء على هضبة الجولان (فيما عدا جبل الشيخ) وبدأت في تقدمها في عمق الأراضي السورية. وحدث كل ذلك رغم تعرض إسرائيل لمفاجأة في جبهتين وفي توقيت واحد. وكان معدل الصحوة في الجبهتين شبه متزامن وبفارق زمني يقاس بالساعات

ولا توجد مواقف في التاريخ العسكري المعاصر بمعدل هذه الصحوة التي حققها الإسرائيليون وقدرتهم على ارتجال إجابات آنية جديدة. ويختلف الأمر بالنسبة لمعدل الصحوة من المفاجأة الأساسية التي تشمل مجالات ليس من السهل إدراكها وليس من السهل التوصل إلى حلول لها. وقد احتاجت إسرائيل في هذه المجالات لفترة زمنية طويلة شهدت خلالها حالات هلع ومحاولات بلورة مدارك ذاتية جديدة.

وبداية الاعتراف بمغازى هذه المسيرة ظهرت في أعقاب الحرب فقط وبعد ان تبين ان الحلول الآنية حلت حقا المشاكل الفورية للحرب وهى المشاكل الأخطر ولكنها تركت القضايا الأساسية بدون إجابة. ومع تغيب هذه الإجابة بـرز الوهـم، أو الأمل السهل، القائل بأنه يمكن عن طريق القيام بسلسلة من العمليات الآنية، حل هذه المشاكل. وأبـرز مثـال لذلك هي التغيرات التي حدثت في تقييم نتائج تلك الحـرب. وكلما مر الوقت منذ توقف المعارك كلما تعاظمت الشكوك حول السؤال القائل : " هل في ظل هذا المستوى المرتفع من التعميم والـذي نسميه " تعميم أساسي " يمكن أن توصف نتائج الحـرب بأنـها انتصار لإسرائيل ؟."

هوامش الفصل الثاني

(١) تحدث أحد الباحثين في ظاهرة المفاجأة وهو افرهام بن تسفى عن ضعف مجال البحث في ظاهرة المفاجأة في تفهم العوامل المتأخرة التي تقف وراء هذه الظاهرة فقال : "التحدي العاجل الذي يعترض، إذن، ميدان البحث يتمثل في تطوير المعايير التي تساعد على تحديد وفهرسة المشاكل التي تظهر إلى الوجود في مرحلة " ما بعد الإدراك" اى بعد استيعاب وجود التهديد بكل وضوح. وانظر في هذه الشأن : أ. بن تسيون، التهديد، الرؤية والرد، تحليل نقدي لساحة البحث في مجال الدولة، الحكم والعلاقات الدولية. ربيع ١٩٧٧. ص١١٧.

(٢) بروفيسور يهو شفاط هاركابى هو الذي آثار اهتمامي إلى القصة الفكاهية التي تتصل بوبستر وبمناقشة جوهر المفاجأة.

(3) Menahem Perry , "Literary Dynamics : How the order of a text creates its meanings , " Poetics Today, Vol. 1, no. 12- (Autumn 1979). pp. 35-64.

(٤) هرتسوج،حرب يوم الحساب،القدس ١٩٧٥ الصفحات من ٦٧-٦٨.

(٥) الجنرال احتياط يسرائيل تل :معارك المدرعات وساحة القتال العصرية، إصدار معراخوت ص ٢٦١ ،ص٢٦٢. مارس/إبريل ١٩٧٨ ص ٢٢.

(٦) مقابلة مـــع دوف جولـد شـتاين نشـرت فـي معـاريف بتـاريخ ١٩٧٣/١١/٢. والسلالم التي وردت الإشارة إليها هنا استخدمت فـي تسلق الضفة الشرقية للقناة وهي منطقة مرتفعة وفي تسلق المواقــع الأمامية.

(٧) تقرير لجنة اجرانات ص ١٩.

(٨) انظر مثلا : حـــايم هرتســوج "إســرائيل كقــوة كـبرى" هــارتس ١٩٧٣/٥/٦.

(٩) ذكر ديان في العاشر من سبتمبر خلال تجمع انتخابي أقيم في بئر سبع ما يلي :"لقد انقضت ست سنوات على حرب الأيام الستة ولا زلنـــا نتحدث عن فترة تمتد لأربع سنوات أخري.لقد اعتدنا أن نحارب لمدة ستة أيام كل عشر سنوات"، وقد وردت هذه الفقرة في كتاب برطوف الجزء الأول ص ٢٨٢.

(١٠) برز في الدراسات التي كتبت مؤخرا عن فشل أجـــهزة المخـــابرات خارج إسرائيل، الاعتراف المتزايد بدور أصحـــاب القـــرارات فـــي حدوث مفاجآت استراتيجية، ولذلك لا يمكن التوصل إلى تشـــخيص واضح يحدد أين تنتهي مسئولية المخابرات عن حدوث الفشل وأيـــن تبدأ مسئولية القيادة السياسية.

وكنموذج لذلك انظر:

R.K. Betts. "Analysis War and decision " World 31 (october 1978), pp.61-89 ; T.K.· Vol·politics U.S. Intelligence and the Corneas. "·Latimer

. No. 3 (summer , 1979). Vol. 7.Strategic Review
pp. 47-56.

كما أدرجت لجنة شئون المخـــابرات التابعـــة لمجلـــس النـــواب الأمريكي ضمن استنتاجاتها حول أسباب الفشل الأمريكـــي فـــى تقييم تطور الأمور في إيران العبـــارات التاليـــة : "الاتـــهامات السطحية عن فشل المخابرات" لا تعكس حقيقة الوضع بكل دقـــة. فمثل هذه الاتهامات لا تجعلنا نـــدرك أهميـــة تـــأثير توجـــهات أصحاب القرارات على عملية الردع. وبالنسبة للنموذج الإيرانـــي، فقد أخطأت التوجهات التقليدية للولايات المتحدة بالنســـبة للشـــاه وذلك على مستوى جمع المعلومات المخابراتية. كما قللـــوا مـــن شهية أصحاب القرارات في الحصول على تحليلات حول وضـــع الشاة وتسببوا في نوع من البلادة ولم يستفيدوا مـــن المعلومـــات الدقيقة التي كانت في حوزتهم. وقد ساعد على تحقيـــق الفشـــل المخابراتى في القضيـــة الإيرانيـــة أجـــهزة المخـــابرات ذاتـــها والأطراف التي كانت تتلقى هذه المعلومات. انظر في هذا المجال :

U.S. House of Representa tives , permanent select
Iran : Evaluation of.Committee on Intelligence
U.S. Intelligence Performance Prior to November
staff report the subcommittee on Evaluation.1978
D.C. 1979), p. 1 and p. 7..(Washington

وتصل الرغبة في إلقاء مسئولية فشـــل المخـــابرات علـــى كـــاهل أصحاب القرارات إلى درجة من التطرف والـــى محاولـــة تطويـــر نموذج يقوم على الافتراض القائل بان المخابرات تفسر المعومـــات كما يجب وان الذين يشوهون مغزى هذه المعلومـــات هـــم دائمـــا متخذوا القرارات الذين يفسرون المعلومة على ضوء التزامهم بـــهذا الخط السياسي أو ذاك. انظر أيضا :

G. H. Poteat, " The Intelligence Gap : Hypotheses on the Process of surprise, " International Studies Notes, Vol. 3, No. 3 (Fall, 1976) pp. 14-18.

(١١) عن النظرة الناصرية لجوهر الحل العسكري : انظر : العميد يونـــا " سياسة الكفاح الناصرية "، معراخوت العـــدد ٢٢٣، ص ٣٠-ص٤١ وكذلك انظر : د. شيفمان : " من حرب الأيام الســـتة إلـــى حـــرب الاستنزاف "، معراخوت ص ٢٥٧، العدد ٧٧، ص ٨-١٣. وعـــن نظرة السادات إلى حرب يوم الغفران انظر" تقارير الصنداي تـــايمز من القاهرة " الصادرة فى الثامن من أبريل ١٩٧٣ وكذلك صحيفـــة النهار الصادرة في ١٩٧٣/٩/٢١.

(١٢) بناء على محادثات مع ضباط كبار فى المخابرات جرت فـــى ذات الفترة.

(١٣) انظر :أ، شفايد "صمود المجتمع الإسرائيلي فى الحرب ؛ انظر أيضـــا أ. كوهين و أ.كرمون :"في ظل حرب يوم الغفران " جامعـــة حيفـــا ١٩٧٦ الصفحات من ٥٩-٧٣ .

(١٤) عيزر وايزمان ودوف جولد شتاين "لــك السـماء ولـك الأرض "، إصدار مكتبة معاريف تل أبيب ١٩٧٥، ص٣١٠ .

وتحدث المعلق الأمريكي جوزيف اولسوب في مقـال نشـرة فـي "نيوريببلك " في الثالث من أكتوبر عام ١٩٧٠ وبعد شهرين من الخطـوة المصرية (في الثالث من أكتوبر) عن التقصير في مجال الصواريخ وأشار إلى أن الإسرائيليين لم ينجحوا في التوصل إلى حـل تكتيكـي لمنظومـة الدفاع الجوى في خط القناة.وذكر اولسوب أيضا من انـه إذا لـم ينجـح السلاح الجوى الإسرائيلي في إيجاد مخرج من هذه المشكلة فأنة سيسـاعد المصريين على تحقيق السيطرة على سماء منطقة القناة مما يحـول دون قيام السلاح الجوى الإسرائيلي بنشـاط مؤثـر فـي المنطقـة الأماميـة لسيناء.انظر في هذا الشان.

. p18. October 3 , 1970.The New Republic

(١٥) انظر ص ١٥٥ كتاب :

Heikal , The Road ro Ramadan , Collins Condon 1975 , p155.

ويذكر الجنرال الجمسى في مذكراته من أن الاستعدادات لحرب يـوم الغفران بدأت في عام ١٩٦٨ مع بداية سلسلة من المناورات كـان من المقرر القيام بها كل عام.وانظر يهو شواع حلميـش "مذكـرات رئيس الأركان المصري عن الحـرب "، يـد يعـوت احرونـوت ١٩٧٨/١٢/١٥ ص ٣.

وكان الجمسي يقصد سلسلة المناورات التي حملت اسم "التحرير" والتي نفذت المناورة الأخيرة منها تحت اسم "تحرير ٤١"، والتي كانت بمثابة غطاء التضليل الرئيسي لدى المصريين والذي أمكنهم عن طريقة من الدفع بقواتهم إلى مرحلة الهجوم.

(١٦) نقلا عن وكالة الأنباء المصرية -الشرق الأوسط، من دمشق في الخامس من أكتوبر ١٩٧٥ .

(١٧) بناء على شهادة ضباط في إدارة البحوث بالمخابرات العسكرية.

(١٨) برطوف،الجزء الثاني ص ٢٨.

(١٩) معاريف، ١٩٧٣/١٠/١٠.

(٢٠) معاريف ١٩٧٥/٢/١٥.

(٢١) برطوف،الجزء الثاني ص ١٢٤ .

(٢٢) العميد " أفي شاى ": مصر تتجه صوب حرب يوم الغفران، أهداف الحرب وخطة الهجوم" معراخوت ٢٥٠، يوليو ١٩٧٦، ص١٥ إلى ص٣٨. وتضمن هذا المقال تفاصيل واسعة عن المعلومات الخاصة بالتخطيط للحرب

واستند المؤلف على مجموعة واسعة من المصادر بما في ذلك الوثائق الخاصة بخطط الهجوم التي استولى عليها جيش الدفاع خلال الحرب.

(٢٣) الشاذلي، مذكرات، ص٢٥.

(٢٤) انظر: أدان، على ضفتي قناة السويس ص ٧١.

(٢٥) وردت في كتاب أدان تفاصيل شاملة عن الخلفية الخاصة بإقامة خـط برليف والاعتبارات التي حركت المخططين لذلك والتغـيرات التـي حدثت في تحديد وظيفة الخط (انظر ص ٤٣ -٥٣)وانظر كذلـك "موشية ديان" : علامات على الطريق ص ٥٨٣.

(٢٦) انظر وايزمان " لك السماء ولك الأرض " ص٣١٢ .

(٢٧) انظر أ. افنيرى : " سماء مشتعلة "، السلاح الجوى في حرب يـوم الغفران. تل أبيب ١٩٧٥، ص٦١ص٦٢.

(٢٨) برطوف الجزء الأول ص٢٥٣.

(٢٩) منقول من مقال " اميراورن"، دافار، العدد الأسبوعي، ١٩٧٩/٤/٢٠ .

(٣٠) برطوف، الجزء الأول ص ٢٩١ .

(٣١) برطوف، الجزء الثاني،ص ٢١- ص٢٣ .

- ديان، علامات على الطريق، ص ٥٧٦ .
- هرتسوج، حرب يوم الحساب، ص ٦٠ .
- جولدا مئير، حياتي، ص ٣٠٩ -ص٣١٠ .

(٣٢) عن تلـك النظـرة انظـر : "م. بريتشـر، م.راز : "تصـورات وتصرفات :" أزمة حرب يوم الغفران ١٩٧٣"، : دولـة حكومـة وعلامات دولية (العدد١١) شتاء ١٩٧٧. ص٥٥ - ٧٠

(٣٣) انظر :

Military Aspects of the Israeli-Arab Conflict, International Symposium held in Jerusalem,

October 12-17, 1975, university publishing projects (Tel-Aviv, 1975), p. 255.

(٣٤) برطوف، الجزء الثاني، ص ١٣٩.

- ديان، "معالم على الطريق،" ص٥٩٣.

الفصل الثالث

" مسيرة ما بعد الحرب - المدارك والدروس المستفادة "

للمفاجأة الأساسية بُعد ثنائي الاتجاه. وعلى الباحث الذي يريد الكشف عن مغزى المفاجأة ألا يركز نظرته على الماضى فقط - أي على ما قبل وقوع الحدث ذاته بفترة زمنية طويلة تُقاس بالأشهر وبالأعوام غير القليلة (مثلما فعلنا في أحد الفصول السابقة) - بل عليه أن يتابع فترة ما بعد حدوث الحدث المفاجئ ولفترة طويلة من الزمن تقاس أيضاً بمفاهيم الأشهر بل والأعوام.

إن المفاجآت الأساسية ليست حدثاً بل هي مسيرة مستمرة. وما سُمى بمفاجأة حرب يوم الغفران كانت مجرد بداية لمسيرة الكشف عن جوهر المفاجأة وكانت الحرب بمثابة ومضة أولى ودافعة لمسيرة الكشف عن مفاجآت أخرى وفى مجالات واسعة لم تكن متوقعة في أغلبها. وتبدأ وبصورة متوازية مع هذه المسيرة، محاولة إعادة التقييم - وهى محاولة لبلورة افتراضات أساسية جديدة - وبصورة تتفق مع الواقع. وعملية إعادة التقييم التي تعقب حدوث المفاجأة الأساسية وكذلك نجاحها هي أمور غير مضمونة التحقق. ولكى نفهم جوهر هذه الإشكالية سنحتاج

إلى المصطلح الذي طوره فيلسوف العلم توماس "كُون" في محاولة منه للوقوف على الظروف الضرورية التي تؤدى إلى تغيير في المفاهيم الأساسية للعلم وهو ما أسماه "بنية الثورات العلمية"(1).

يقول كُون بأنه لكي تحدث هذه الثورة فمن الضروري حدوث أزمة مزدوجة :"أزمة سوسيولوجية وأزمة أبيستمولوجية معرفية. وتؤدى الأزمة السوسيولوجية مباشرة إلى المدارك الذاتية للنظام، للمجتمع أو في الحالة التي درسها كون سوف تؤدى إلى جمهور العلماء، حيث أن هؤلاء يكونون في وضع "فقدان الطريق". وتفجر الأزمة الابيستومولوجية الإدراك بأنه *يستحيل شرح الواقع عن طريق النظريات الأساسية القائمة أو* عن طريق الاستعانة بمجموعة الافتراضات والتقنيات والقيم الضاربة في جذور طبقة العلماء والتى يستخدمها هؤلاء في شرح موضوع بحثهم وهو ما أطلق عليه "البرديجما". ويدعى "كون" بأن طبقة العلماء ذاتها ملزمة بالدراسة الدائمة للافتراضات الخاصة بها وذلك إزاء "الثورات العلمية" التي لا تحقق حتى بعد أن واجهت "البرديجما" مصاعب متعاظمة في تفسير الثورات العلمية المتوقعة. ومن الضرورى لكي تحدث

"ثورات علميـــة" ظـــهور مـــا يعـــرف "بالمعرفـــة وبـــالإدراك السوسيولوجى" للأزمة التي تواجه البرديجما".

والأحداث التي تبرز للعيان في أعقاب حـــدوث المفاجـــأة الأساسية غير ثابتة الاتجاه. فالمفاجأة الأساسية تخلـــق مـــدارك سياسية وسوسيولوجية عنيفة لوجود الأزمة ولكن فـــي أعقـــاب ظهور المدارك السوسيولوجية لوجود هذه الأزمة فليس هناك مـــا يضمن حدوث مسيرة التحول من "البرديجما" التي خيبت الآمـــال إلى برديجما جديدة تتفق بصورة أكبر مع "الواقع" وذلك نظـــراً لعدم وجود ميكانيزم "علمـــى" أو اجتمـــاعى يوضـــح جوهـــر "الايبستمولوجيا" الخاص بالأزمة التي كشـــفت عنـــها المفاجـــأة الأساسية. ولكى نوضح هذه التفرقة فإن علينا أن نخـــرج عـــن الطريق قليلاً ونقوم بوصف أحد البحوث الذي نفذه "بارى ترنـــر" وهو خبير بريطانى في السوسيولوجية الصناعية علـــى حـــالات من الكوارث التي وقعت في بريطانيا في عـــامى ٦٦-١٩٦٧[٢] (مثل الكوارث التي حدثت فـــي المنـــاجم أو حـــالات الحريـــق الخطيرة أو التصادم بين القطارات وخلافه). ويمكـــن ملاحظـــة الشبه بين النتائج التي توصلنا إليها فـــي هـــذا الكتـــاب بشـــأن "المفاجآت الآنية" في مقابل "المفاجآت الأساسية" وبيـــن النتـــائج

التي توصل إليها ترنر. وقد وجد ترنر بأنه في الإمكان تقسيم الحالات التي درسها إلى قسمين :

القسم الأول : والذي أطلق عليه اسم "الحوادث". وهذا القسم يشبه إلى درجة كبيرة المفاجآت الآتية.

القسم الثاني : وأطلق عليه اسم "الكوارث" وهو يشبه ما نطلق عليه اسم "المفاجآت الأساسية" ولكن لا يتطابق معه تماماً.

ويرى "ترنر" بأن "الحوادث" تقع نتيجة خطأ أو فشل في التطبيق وفى تنفيذ مبادئ الأمان المتعارف عليها. أما الكوارث فتحدث نتيجة عدم موائمة مبادئ الأمان ذاتها مع الأعطال التي تجئ هذه المبادئ لمنع حدوثها. وعدم الموائمة هذه لا تُدرس لفترة طويلة من الوقت مما يسمح بتجمع سلسلة من الأخطاء في مبادئ الأمان التي لم تتعرض للدراسة والتى تتسبب في حدوث الكارثة. والكارثة هي التي تفجر هزة اجتماعية بسبب قوانين الأمان. وفرّق ترنر بين مرحلتين مختلفتين خلال مسيرة "ما بعد وقوع الكارثة". وأطلق على المرحلة الأولى اسم "الإنقاذ والتخليص" وهى المرحلة الأولى من عملية المواءمة.وتُنفذ خلال هذه المرحلة عمليات مواءمة فعلية بين قوانين الأمان مما يساعد

على البدء في عمليات الانقاذ والتخليص. وتنفذ خلال المرحلة الثانية التي يطلق عليها ترنر اسم "التعود الثقافى الكامل" دراسة تعقبها عملية وضع معايير أمان جديدة تعكس المدارك الجديدة لدى النظام.

ويبرز هنا اختلافان رئيسيان بين ما توصلنا إليه من استنتاجات وبين الاستنتاجات التي خلص إليها ترنر. ويرى ترنر أن الأسباب الخاصة بظاهرة "الكارثة" تعود إلى أن المسئولين عن المجال الذي وقعت له الكارثة، فشلوا في توفير معلومات "واضحة" و"في متناول اليد" و"موثوق بها". وافترض هو أيضا أن الأجهزة التي قام بدراسة أعمالها توافرت لديها مثل هذه المعلومات ولكنها لم تصل إلى من في أيديهم سلطة اتخاذ القرار وذلك لفشل تنظيمى(٣). ويجب إذن، البحث عن أسباب حدوث الكوارث، في القيود والعيوب التنظيمية. ولا تتفق تلك الافتراضات الخاصة بأسباب وقوع الكوارث، والتى ربما تكون سارية المفعول بالنسبة للأحداث التي درسها ترنر، لا تتفق مع ما توصلنا إليه من استنتاجات خاصة بالمفاجآت الأساسية. وعلى النقيض من ترنر فقد أشرنا إلى أن عملية تكوين مدارك وأن الدراسة الذاتية التي تحدث في أعقاب حالات الهلع الاستراتيجى

قد تنتهي بالفشل. وتتبع هذه الاختلافات في وجهات النظر من أن ترنر(*) درس مشاكل تتسم بمجال حدث ثابت وتوافرت عنها معلومات ذات قيمة عليا نسبياً من حيث القدرة على التمييز، مع توافر الظروف التي تساعد على القيام بدراسة بنيوية حول الكارثة التي وقعت. ومن هنا توافر الميكانيزم الذي يساعد لجان التحقيق التي شكلت لدراسة أسباب الكارثة على تحديد الأسباب وعرض وسائل منع حدوث كوارث مشابهة في المستقبل. ولكن من سوء الحظ، لم تتوافر لدينا في أعقاب حدوث مفاجآت أساسية، تلك الظروف المُخففة.

وبعد حدوث المفاجآت (الآنية والأساسية) على المستوى الأمنى، تسارع أجهزة المخابرات والأجهزة الأخرى داخل الجيش إلى سد الثغرات التي ترى أنها كانت السبب في حدوث الفشل. ويتم ذلك من خلال عملية مركزة وموجهة أساساً لمجالات وأغراض قابلة للتنفيذ. وفى إطار ما يسمى "بدراسة الدروس المستفادة". ويحدث ذلك بصورة تشبه ما يحدث في أعقاب حدوث "حوادث" و "كوارث" وهو ما أطلق عليه ترنر اسم "الانقاذ والتخليص - المرحلة الأولى للمواءمة". ولكن الخطر يتمثل في أن مثل هذا العمل بالذات قد يؤدى إلى تهدئة

"المدارك السوسيولوجية" للأمة تجاه الأزمة التي تجتازها وبدون أن تتحقق "المدارك الابيستمولوجية" حول جوهر الأزمة. فمسيرة استخلاص الدروس المستفادة بواسطة تلك الأجهزة تقلص مجال البحث عن الأسباب الفورية التي أدت إلى حدوث حالة الهلع.

ولم تحدد الدولة العصرية وبوضوح الطرف الذي يتحمل خلق مدارك جديدة في أعقاب حدوث مفاجأة أساسية. وليس هناك أي قرار رسمي يحدد مسئولية المخابرات الرسمية من"الناحية الأبيستمولوجية" في توضيح جوهر الأزمة، حيث من المحتمل توافر مثل هذا الترقب وإن كان بصورة غير مدركة في بعض الأحيان. وعلى أية حال فإن هذا ترقب كاذب لأن المبادئ الميثولوجية الحالية الخاصة بأجهزة المخابرات الرسمية، لا تتضمن العناصر الذي توفر إمكانية تحقيق ذلك وبصورة تجعل في وسع هذه الأجهزة تقديم الإسهام الكبير المغزى لوصف المدارك الابيستمولوجية للأزمة (سنناقش هذا الإدعاء بإسهاب في الجزء الثانى من هذا الكتاب) وللمثقفين والايديولوجين الذين لا ينتمون إلى المؤسسة الرسمية وظيفة اجتماعية هامة في هذه المسيرة لتوضيح النظريات الأساسية السائدة في المجتمع بما في ذلك المواقف الأساسية السياسية،

ولتوجيه الاهتمام الجماهيري والرسمي لعدم وجود مواءمة ميدانية بين تلك النظريات والمواقف وبين الواقع. ومن هذه الناحية فإن أجهزة المخابرات الرسمية لعبت دورا رئيسيا للغاية في مسيرة خلق "المدارك الابستمولوجية" للأزمة، وكان للمفكرين دور هام في منع حدوث مفاجآت أساسية وفى الكشف عن مغازيها بعد وقوعها (كما سبق أن ذكرنا، فإنه حتى لو توافرت لدى أجهزة المخابرات الرسمية الوسائل الكافية للكشف والاختبار الابيستمولوجي للمواقف الأساسية، لما كان ذلك بديلا عن الاعتراض على المسلمات السياسية والاجتماعية الواسعة من جانب دوائر تعمل خارج مجال المسئولية البحثية للمخابرات الرسمية. ولكن يمكن أن نفترض أن الإدراك الأفضل من جانب المخابرات لأسباب حالات الهلع المخابراتية الأساسية كان سيسهل ويسرع من هذه المسيرة داخل المجتمع التي وظفت أجهزة المخابرات لخدمته). ويؤدي إبعاد المثقفين والأيديولوجيين عن الأحداث السياسية الجارية، وبنسب كبيرة إلى قلة تأثيرهم على السياسات بل وعلى بلورة الرأى العام تجاه هذه السياسيات. ويحدث ذلك في الأيام العادية ولكن ليس في الأوقات التي تبرز فيها مشاعر الأزمة القومية وفقدان الدرب. وقد أحسن عاموس عوزحين وصف منظومة العلاقات تلك في عمله الأدبى وتحدث عن الأعمى الذي يقود المبصرين كاملى الوعى وقال "طالما

القافلة تسير فإن رجال الكلمة ليسوا سوى كلاب تنبح أو عناصر تصرخ. ولكن عندما تتوقف القافلة عن السير أو تفقد طريقها أو قوتها فإنها تصاب بالوهن. عندئذ يجئ الأعمى ويقود المبصرين[٤]. وتبرز مزايا الأديب، المفكر والمثقف في أعقاب الإصابة بحالات هلع قومية. فهذا الرجل الأعمى يتمتع في مواجهة الأحداث الجارية بحواس حادة تساعده على فهم مغزى الخطوات التي ستلي الأحداث. وفى نفس الوقت تتعاظم استعدادات "المبصرين" والذين يمثلهم في موضوعنا هذا، رجال السياسة ومُشكلو الرأى العام للإنصات بل والاقتناع بأسلوب تفكير "رجال الكلمة" هؤلاء. وفى أحوال معينة يشير فشل مسيرة "إعادة دراسة الأمور" الذي تقوم بها الأمة في أعقاب حدوث مفاجأة أساسية إلى فشل النخبة الروحية في المجتمع وبصورة لا تقل عن فشل الأجهزة السلطوية والعسكرية وأجهزة مخابراتها. فإن عمق الموضوعات التي تُدرج في مسيرة "إعادة دراسة الأمور" في أعقاب حدوث حالة هلع قومى مرهونة بالنخبة الروحية للمجتمع.

وسنستعرض هنا وباختصار مسيرة تطور "المدارك السوسيولوجية" الخاصة بجوهر الأزمة التي برزت للعيان في أعقاب صدمة يوم الغفران (لا يُفهم من هذا الوصف أن

تطور "المدارك الذاتية" في أعقاب الحرب، يحدث وفق نظام مرحلي واضح حيث تبدأ كل مرحلة من حيث انتهت المرحلة السابقة لها. وكان في الإمكان على مستوى الواقع، ملاحظة بروز ملامح خاصة بفترات مختلفة). وسنتحدث في الفصول التالية عن الصعوبات والعقبات التي تعترض طريق "إعادة دراسة الأمور" داخل الجيش وداخل أجهزة المخابرات وفي الأجهزة السلطوية والسياسية وسنتحدث في النهاية عن بعض ملامح اسهامات المفكرين في هذه المسيرة.

وفور اندلاع الحرب برز داخل السلطة وخارجها الميل إلى ربط المفاجأة التي وقعت بأسباب وأفعال قام بها الآخر أي الخصم وبحدوث عملية خداع. وقد نُشر الكثير من أقوال الشهود والأوصاف التي ذكرها الجنود والقادة الذين خدموا في خط الجبهة عن الصورة التي اندلعت بها الحرب. وكان لهذه الأقوال نصيب في خلق التصور العام والمبالغ فيه والذى ينسب إلى عملية الخداع المصرية دوراً حاسماً في الحرب.

ما هو الدور الحقيقي لعملية الخداع هذه ؟

تضمن التخطيط المصري السوري للحرب مجموعة كبيرة من إجراءات الإخفاء والتضليل. ونفذ ذلك تحت ستار

"المناورة العسكرية" حيث تلقى الضباط الذين تقرر إشراكهم في الحرب على مستوى السرية والكتيبة أوامر العبور قبل بداية الحرب بساعات معدودات فقط. وأشارت البرقيات والرسائل المصرية الكثيفة التي قامت شعبة المخابرات في القيادة العامة بفك رموزها إلى أن هؤلاء مشغولون "بمناورة كبرى". وقد أدى ذلك إلى تزايد مشاعر المصداقية في المعلومات العلنية التي بثها المصريون عن المناورة. كما قام المصريون في الرابع من أكتوبر بتسريح حوالى ٢٠ ألف جندى من الاحتياط ونشر ذلك على الملأ[٥]. ونشرت جريدة الأهرام في الخامس من أكتوبر خبراً عن تسجيل أسماء الجنود للحج لمن يرغب في ذلك. ولكن إلى جانب النجاح في الاخفاء والتضليل منى المصريون بالفشل في أشياء أخرى. فأمكن مثلاً وقبل أيام من الحرب، فك رموز نبأ وصف بأنه على جانب كبير من السرية، كان يشير إلى منع أفراد بعض الوحدات من الصوم في رمضان. ويبدو، في نهاية الأمر، أن خطة الاخفاء والتضليل المصرية رسخت الاعتقاد لدى الإسرائيليين بأن المصريين والسوريين لن يجرؤوا على الهجوم. ولكن لم يكن الاخفاء والتضليل يشكلان العنصر الحاسم في خلق هذا الاعتقاد، بل الذي فعل ذلك هو الخداع الإسرائيلي

الذاتي. وكما يبدو فإن المخططين المصريين لم يولوا قبل الحرب أهمية حاسمة لعملية الخداع والتضليل. ومن الشواهد الهامة على أن المصريين لم يعلقوا أهمية حاسمة على الخداع خلال تخطيطهم للحرب ما قاله الفريق الشاذلى - والذى ورد في كتابه "حرب أكتوبر - مذكرات"، من أن المخابرات المصرية ذاتها كانت ترى أن إسرائيل ستحصل على إنذار مبكر قبل الحرب بخمسة عشر يوماً[٦].

وبدأ المصريون في تبنى أسطورة الخداع بأثر رجعى عندما تبين لهم إلى أي مدى كانت المفاجأة شيئاً حاسمًا، عندئذ فقط أخذوا يدّعون بأنه بفضل فطنتهم ومواهبهم أنزلوا المفاجأة بالإسرائيليين. وربما تمسكوا بهذا التفسير بعد أن تم العمل فعلاً وذلك على ضوء السهولة غير المتوقعة التي تمت بها عملية العبور. وربما جاء إبراز أهمية النجاح في الخداع كجزء من توجههم إلى إظهار حرب يوم الغفران ليس فقط كنصر عسكري بل كشاهد على انهيار أسطورة التفوق العسكري الإسرائيلي.

ورغم ترسخ الاعتقاد الآن بين الجمهور الإسرائيلي الواسع وبين جزء من الخبراء في هذا الشأن من أن المصريين قاموا بعملية خداع محكمة، فقد تزايدت بعد الحرب بأشهر

معدودة المشاعر لدى الجمهور الإسرائيلي باستحالة الاكتفاء بهذا الإدعاء كتفسير قاطع. فقد بات من الأمور التي ترسخت خلال الأيام الأولى للحرب بين الزعامة وداخل المجتمع الإسرائيلى بصورة عامة، إلقاء المسئولية كاملة على كاهل المخابرات الإسرائيلية. وجاء ذلك كمحاولة غير مُدركة وتفتقر إلى أي فرصة لتحاشى العملية المؤلمة المتمثلة في البحث عن مدارك ذاتية جديدة. ولكن بعد أن تكشفت خلال الحرب وبعدها سلسلة من جوانب الفشل التي لم يشعر بها أحد في توقيت قريب من الحرب ذاتها والتى يصعب العثور على صلة سببية بينها وبين الفشل في عمل المخابرات، اتسعت دائرة إلقاء المسئولية على المسئولين عن الفشل وانتقلت لتشمل القيادات العليا للجيش. وأدى الميل الإنسانى والمفهوم في حد ذاته، إلى البحث عن "مذنب" يمكن تحميله مسئولية الفشل إلى جر قادة الجيش إلى معارك كلامية تستند على الوثائق والأرقام والتى حملت بعد ذلك اسم "حرب الجنرالات". وعندما تبين خلال مرحلة تطوير "المدارك"، أن المفاجأة تحتوى على أسباب متنوعة للغاية، وهى أسباب غير عسكرية أو مخابراتية فقط، ظهر إلى الوجود مصطلح "تقصير". وعكست المناقشات العامة حول مصطلح

"تقصير" عدم موافقة دوائر واسعة داخل الجمهور وبخاصة مـــا يطلق عليها "حركات الاحتجاج" على الميل السائد لدى السـلطة - ليس بالذات السلطة السياسية فقط - للتعامل مع المفاجأة الأساسية لحرب يوم الغفران على أساس أنها مجرد سلسلة من المفاجــآت الآنية خاصة وأن هذه المدارك كانت تتسم بالغموض ولـــم يتـم صياغتها وفق تلك المفاهيم.

وبرز أحد التجليات الخالصة لعدم الموافقة تلك في عــــدم الارتياح من الاستنتاجات التي خلصت إليها لجنة أجرانات حيـث ألقت المسئولية على القيادة التنفيذية فقط. وفيمــا وراء المغــزى السياسي الفوري الذي جسدته مشاعر عدم الارتياح تلك، يبـــدو أنه تسلسل خلال هذه المرحلة، الوعي الذي يـــرى بــأن حجـم الظاهرة يتخطى المجال الوحيد لعمـــل المخــابرات أو أجــهزة أخرى في الجيش خاصة إذا كــانت الأسـباب التــي أدت إلــى الأسرع في الكشف عن هذه الظـــاهرة هــي جوانــب الفشــل المخابراتية والعسكرية. وتقدمت واتسعت، خلال السنوات التـــي انقضت منذ النقاش العصاخب الذي تفجر حول مسئولية الجـــهاز السلطوى والذى اقترن به نشر تقرير لجنة أجرانـــات، مســيرة البحث عن إجابات على الأسئلة التي أثيرت فـــي هـذا الشــأن.

وُوجهت الأسئلة أيضاً إلى الجوانب الذاتية القومية والشخصية. وبدأ كثير من الإسرائيليين يصيغون الأسئلة التي تتصل بالمفاجأة التي حدثت في حرب يوم الغفران باعتبارها أسئلة تعبر عن إجراء حسابات مع النفس. وقد تزايد الشعور بأن أسباب الظاهرة تعود في مصادرها إلى تطورات داخلية لا تقل عمقاً عن العوامل الخارجية أو تعود إلى تقصير الجهاز السلطوى أو العسكرى عشية الحرب. وكان طلائع هذه المسيرة، ولازالوا، هم المثقفون والمفكرون(٧).

وربما الشئ الذي يميز هذه المسيرة، ربما أكثر من أي شئ آخر، هي الظاهرة التي انتشرت في السنوات الأخيرة والتى تتمثل في التناول الواسع لقضية إعادة دراسة الوضع من جديد وتفنيد أساطير قومية. وتشمل هذه المسيرة إعادة دراسة جادة للمسلمات الخاصة بأبطال قوميين وبأحداث تعود إلى الماضى البعيد مثل قصة "يهودا المكابى" وثورة الحشمونيم (ثورة المكابيين ضد الرومان) كما عبرت عنها الدراسة التي نشرها بتسلال باركوخفا تحت عنوان "حروب الحشمونيم - عصر يهودا المكابى"(٨). ومثل كتاب يهوشفاط هاركابى تحت عنوان "باركوخفا وثورته" والذي فجر فيه قضايا ساخنة تتصل بالواقع

وبالدروس القومية والتثقيفية المستمدة من سفر إرميا حول الثورة الكبرى وثورة باركوخفا[٩]. كما أعيد دراسة بعض الحقائق التي ترسخت حول شخصيات قدوة وأحداث بطولية حدثت في الفترة الصهيونية خلال فترة التجدد القومي مثل قضية الصمود في "تل حي". وقد ورد ذلك في كتاب "تكديمون روجل" تحت عنوان "تل حي - جبهة بدون مؤخرة[١٠]. وكذلك كتاب "شولاميت لاسكوف تحت عنوان "رجال البيلو[١١] (رجال الهجرة اليهودية الأولى التي قدمت إلى فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر) بالإضافة إلى تناول شخصيات على غرار "برل كتسلنون" (أحد الزعماء العماليين في فترة ما قبل قيام إسرائيل) كما ورد في كتاب "انيتا شابير" تحت عنوان " برل - سيرة ذاتية "[١٢]. ومن دواعي شيوع وانتشار هذا الكتاب المشاركة الشعبية الواسعة في إسرائيل في عملية إعادة دراسة مسلمات تتصل " بالأنا القومية ".

وعلى أية حال، يبدو الآن وبعد سنوات من هذا الحدث المفاجئ أنه لم تتضح حتى الآن المغازى الكاملة لحرب يوم الغفران وحجم المفاجآت التي حدثت خلالها. وما زالت عملية قيام المجتمع الإسرائيلي بالكشف عن الطبقات العميقة للأزمة مستمرة.

قضية الدروس المستفادة من الحرب

طولب جيش الدفاع فور انتهاء الحرب بالاستعداد للتصدى لتهديدات جديدة. ففي الشمال بدأ السوريون حرب استنزاف وبدا الانسياق إلى حرب شاملة يأخذ شكل الاحتمال الذي يحظى بمعقولية كبيرة. وفى المقابل، وفى مواجهة العيوب التي كشف عنها خلال الحرب، برزت الحاجة إلى استخلاص الدروس المستفادة والسريعة التي تسير على هداها عملية إعادة تنظيم الجيش. وبدأ جيش الدفاع إذن عملية شاملة وسريعة لاستخلاص الدروس المستفادة قبل وقت طويل من مطالبة لجنة أجرانات ومعها الضغط الشعبى من المطالبة بذلك بصورة مفاجئة (لم تنشر بعد الدروس المستفادة من حرب يوم الغفران. ولكن كُشف خلال السنوات التي انقضت منذ انتهاء الحرب عن مزيد من التفاصيل الخاصة بهذه الدروس المستفادة والتى يمكن استرجاع جزء منها وتكوين مفهوم عام عن طبيعة الدروس المستفادة الأخرى. وأول مصدر في هذا الشأن هو تقرير لجنة أجرانات. وتبرز بعض الدروس المستفادة من أجزاء التقرير التي نشرت والتى وردت من شبه المؤكد في الفصول التي لم تنشر من

التقرير. وكشف عن الدروس التي سينفذها جيش الدفاع في أعقاب صدور توصيات لجنة أجرانات وذلك في أعقاب أحداث أخرى وقعت وبخاصة بعد عملية الليطاني. وقد انتقد مراقب أعمال الدولة، جيش الدفاع لظهور عيوب خلال تلك العملية حيث وردت تفاصيل عنها في التقرير والتى قرر الجيش تصحيحها بعد حرب يوم الغفران. وبالإضافة إلى ذلك، كشف قادة جيش الدفاع وفى مناسبات مختلفة مثل الاحتفالات باليوم السنوى للأسلحة المختلفة ومثل الاحتفال بالذكرى السنوية للحرب وخلافه عن العديد من المعلومات غير القليلة بشأن التغيرات التي حدثت داخل الجيش بعد نشر الدروس المستفادة من حرب يوم الغفران. وتبرز من تفاصيل تلك المعلومات القيام بسلسلة من التغيرات الشاملة التي نفذها الجيش في أعقاب الحرب).

وقد قُدم الحل السريع والمستهدف لكل واحدة من المفاجآت التي حدثت في الحرب كل على حده. فالمعروف مثلاً أنه اتخذت الإجراءات المطلوبة لضمان عدم وجود أي نقص في قذائف المدفعية الثقيلة خلال الحرب المقبلة، إذ ا اندلعت حقاً. كما تقرر أيضاً أن تتحرك وحدات المدرعات برفقة وحدات من المشاة

الميكانيكية المزودة بصواريخ شخصية مضادة للدبابات وبوسائل متعددة للرؤية الليلية والتى تساعد على خوض القتال الليلى. ويمكن أن نفترض أيضاً أن السلاح الجوى طور تكتيكا أكثر تقدماً مع التزود بأنظمة أكثر تعقيداً للقتال ضد أنظمة الصواريخ المختلفة. وسيكون النظام الدفاعى المستقبلى لجيش الدفاع معتمداً بدرجة أقل على الحصول على إنذار مبكر مخابراتى. وسيستند رد جيش الدفاع على المعلومات الواردة ضمن الإنذار المبكر على "مساحات أمنية أكبر" وعلى تكثيف القوات الدائمة المرابطة في الجبهات (لا تضمن تلك التحسينات ألا تظهر في الحرب المقبلة عيوب في نفس المجالات التي ظهرت فيها العيوب السابقة. ويمكن المخاطرة بالقول بأنه من المتوقع، ورغم كل التحسينات التي حدثت، أن جزءا من الأعطال "الآنية" التي كشف عنها في حرب يوم الغفران ستظهر مرة أخرى في الحرب المقبلة، حيث أنها ليست سمة مميزة فقط لحرب يوم الغفران بل هي شئ محتمل الحدوث في أي حرب مقبلة. إن الظواهر المتمثلة في نقص الذخيرة وفى الأعطاب التي حدثت خلال نقل معلومات مخابراتية فورية إلى القوات الميدانية والصعوبات في إدارة القتال الذي تكتنفه مشاكل ثابتة خلال

الحرب، قد تتكرر في الحرب المقبلة ولكن ربما بصور وأحجام أخرى). إن الانتقال من "الثقة الزائدة" التي اتسمت بها فترة ما قبل الحرب إلى الحلول القائمة على "المزيد من نفس الشئ"، حتى لو احتوت على مكونات أكثر أهمية، مثل توافر المزيد من النظام، المزيد من الضبط والربط والمزيد من التدريبات والتي يقوم بها أي جيش بعد خوضه حربا كُشف خلالها عن عيوب جسيمة، هو أسهل الطرق لإعادة دراسة الأوضاع من جديد بعد حدوث المفاجأة الأساسية وإن كان طريقاً غير كاف.

وجاء الدرس المستفاد الآنى والهام للغاية متصلاً بحجم الجيش. ففى أعقاب الحرب بدأ جيش الدفاع مسيرة تعاظم كمى ضخم وبصورة غير مسبوقة. وزاد حجم قوات جيش الدفاع بحوالى الثلث مقارنة بحجمه قبل الحرب، وزادت قواته النظامية بما يقرب إلى النصف مقارنة بحجمه السابق. ولكن ألم يكن هذا رداً مبالغاً فيه بعد أن تبددت افتراضات راسخة حول قدرة جيش الدفاع على مواجهة أي هجوم عربى عن طريق استخدام قوات محدودة الحجم؟. ألم يكن هذا رداً طبيعياً للغاية علـى إنـهيار نظريات خاصة بالقدرات العسكرية أكثر مما هو دراسة حذرة حول علاقات القوى الفعلية وحول الافترضات الأساسية الأكثر

عمقاً والتى تتصل بالتطور المرتقـــب للحــرب، وهــى أيضــاً الافتراضات التي أدت إلى نشر غير سليم للقوات خلال المراحل الأولى للمعركة؟.

إن الصورة التي تكونت عن علاقات قوى صعبة عمل في إطارها جيش الدفاع خلال الحرب، وهى الصورة التي راجــت بين الجمهور في أعقاب الحرب والتى ظهرت أيضاً إلى الوجـود على ضوء التطورات التي حدثت في الســاحة خــلال الأربــع والعشرين ساعة الأولى للحرب، لم تعكس وبصورة سليمة حقيقة الوضع في الساحة فيما بعد. لم تكن المشكلة التي واجهت جيـش الدفاع في حرب يوم الغفران، تتصل بعلاقات القوى فيمــا عــدا الأربع والعشرين ساعة الأولى[١٣]، بل كانت المشكلة تتمثل فــي الانتشار السليم وفى الوقت المناسب للقوات المتاحة (كانت لــدى قوات جيش الدفاع قوات كافية للدفاع. ولكــن وكمــا ســبق أن ذكرت في مكان آخر فإنه لم تكن تتوافر لديه قوات كافية للقيــام بهجوم مضاد في جبهتين في وقت واحــد). ومجــال "علاقــات القوى" هي ربما أبرز وأثمن مثال للرد الآنى المبالغ فيه.

لقد كانت علاقات القوى بين جيــش الدفــاع والجيـوش العربية الأخرى عشية حرب يوم الغفران أفضل لصالح جيــش الدفاع مما كان متوافرًا له خلال حرب الأيام الستة. ولم يســتند

الانتصار الذي حققناه في حرب الأيام الستة وكذلك في حرب ١٩٤٨ وفى حرب السويس على علاقات قوى أفضل بصورة أساسية، بل استند على كيفية التفكير العسكرى. فالتدنى الكمى من جانبنا هو سمة تصدت لها نظرية الأمن الإسرائيلية عند وضع خطط حرب مبتكرة. وحددنا مسيرة الحروب بهذا الشكل الذي فرضنا به معارك الحسم وبما يجسد مزايانا الأساسية في المكان الذي نحارب فيه وفى الأسلوب الذي نتبعه. كما أن زيادة حجم الجيش في حد ذاته والتى قد تظهر في نفس الوقت كخطوة مطلوبة وشبه حتمية، قد تظهر، ومن منظور الزمن، كحل مؤقت وصفقة خاسرة على المدى الطويل. كما أن التزايد المستمر في حجم جيش الدفاع لن يظل بدون رد فعل مضاد. فهو يساعد على تشجيع اتجاه الجيوش الخاصة بدول المجابهة إلى زيادة حجمها. وفى نهاية الأمر فإن حالة التدنى في حجم القوات والتى حكم علينا أن نقيم أمننا خلالها، لم تتغير، وستستمر ولكن على مستوى أعلى من تسخير الثروات القومية والاقتصادية لصالح الأمن.

وعلينا فقط أن نتمسك بالأمل في أن المدارك الخاصة بجوهر حالة "الهلع" التي حدثت خلال حرب يوم الغفران، ستتطور داخل الجيش وبمرور الوقت إلى توجه ينقل مركز

الثقل في مسيرة تعاظم الجيش من السعى إلى توفير المزيد من السلاح والمزيد من الوسائل إلى مزيد من الإدراك ومزيد من الحساسية لحقيقة أن حجم وثراء الجيش هي أمور تؤثر أيضاً على أسلوب تفكيره، حيث أن زيادة الكم إلى ما فوق خط معين يكون على حساب الكيف، وأن ثمن ذلك سيكون أبعد مدى وأكثر عمقاً وليس فقط ثمناً مؤقتاً وسطحيا.

وهناك استسهال تنظيمى في النظر إلى المفاجأة الأساسية على أساس أنها سلسلة من المفاجآت الآنية تفتقر تواجد صلة حتمية بينها. ومن الأسهل، نسبيا، وصف وتحديد الأسباب التي تقف وراء المفاجآت الآنية. والأكثر صعوبة هو الكشف عن جذور المفاجأة الأساسية، بل والأكثر من ذلك، تنفيذ التغيرات المطلوبة في أعقاب ظهور مثل هذه المدارك. إن النظر إلى المفاجأة الأساسية على أساس أنها سلسلة من المفاجآت الآنية يساعد على تصور حدوث تحسن وإصلاح للأمور ويخلق الشعور "بأن ما حدث لن يحدث مرة أخرى". وهكذا لم تتحقق، وبصورة غير مقصودة، المسيرة الشاملة وغير الواضحة والمؤلمة أيضاً والتى تفرضها الحاجة إلى استخلاص الدروس المستفادة وتنفيذها على أساس الافتراضات الخاصة بمستوى

المدارك الأساسية. ولم يُدرس بعد السؤال القائل : هل التبجح والاستخفاف بالعدو والذى كان من صفات الزعامة السياسية والعسكرية قبل الحرب، لم يخلخل ويهز نظرية الأمن القومى لإسرائيل؟. ربما لم يكن في الإمكان تحاشى مسيرة أن تكشف عملية استخلاص الدروس المستفادة في أعقاب الحرب مباشرة عن " نظرية آنية " فقط. إن المدارك الأبيستمولوجية واستخلاص الدروس المستفادة هما مسيرتان غير متزامنتين زمنياً. فمسيرة المدارك الأبيستمولوجية التي تتكون في أعقاب حدوث مفاجأة أساسية هي مسيرة متواصلة، أما الحاجة إلى استخلاص الدروس المستفادة فهى مسيرة فورية. والدروس المستفادة تجسد "المدارك" تجاه جوهر "الظاهرة" وكما برزت على التو وبتأثر من الحدث المفاجئ، في حين لم تختف تماما المغازى المتأخرة والأكثر عمقاً.

أجهزة المخابرات والدروس المستفادة

بعد أن انتهت الحرب كان الاتجاه السائد لدى لجنة أجرانات وأجهزة المخابرات الإسرائيلية ذاتها هو اعتبار الفشل

في تقديم الإنذار المبكر، نتيجة لعدم التنفيذ السليم من جانب القادة. وأدى هذا إلى التركيز الزائد على الأخطار والتقصير الشخصي والتنظيمي. وتعكس توصيات لجنة أجرانات على المستوى الشخصي، النظرية التي ترى بأن الفشل نجم عن عدم ملاءمة بعض ضباط المخابرات للمناصب التي تولوها وعلى رأسهم رئيس شعبة المخابرات الجنرال ايلي زاعيرا. واستندت التوصيات في المجال التنظيمي على الافتراض القائل بأن الفشل في تقديرات الموقف المخابراتية نبع من عيوب في الاتصالات ومن البنية المعيبة التي لم تركز بما فيه الكفاية على المخابرات الميدانية وعلى إدارات المخابرات التي تعمل على مستوى القيادات العسكرية المختلفة، وكذلك لم تركز على أنماط القيادات المتصلبة التي حالت دون التطور المطلوب لتقديرات الموقف التي تختلف عن تلك المتعارف عليها لدى قادة التنظيم المخابراتي. وليس هناك شك في أن هناك أسباب شخصية وتنظيمية للمفاجأة ولكن أسباب حدوث المفاجآت الأساسية - ومنها مفاجأة حرب يوم الغفران - لا ترتبط بالعوامل الشخصية والتنظيمية وإن كانت تجمع بين جميع هذه العوامل.

ومن هذه الناحية فإن توصيات لجنة أجرانات ليست

خاطئة فقط بل خطيرة أيضًا. فقد نشأ تصور يرى بأنه مع تنفيذ التغيرات الشخصية والتنظيمية في حد ذاتها وبخاصة بعد تنحية ضباط المخابرات الذين فشلوا في عملهم، ستصحح العيوب التي أدت إلى حدوث المفاجأة وستتراجع بصورة كبيرة مخاطر الوقوع في مفاجأة أخرى.

وعلى ذلك فإن التغييرات الأساسية التي حدثت داخل أجهزة المخابرات في أعقاب تلك الحرب، هي من نوع التغييرات "التجمعية" أى: تغيير القيادات المخابراتية التي " تعفنت ". (أملاً في أن تكون القيادات الجديدة أفضل وغير مصابة بداء " التصور ") وتوسيع إدارات البحث وجمع المعلومات وتعميقها. وهكذا جرى التركيز في أعقاب حرب يوم الغفران وبعد التحسينات التي حدثت في أجهزة المخابرات الإسرائيلية على مجال التصدى للمفاجأة وفق مفهوم "ضمان تقديم الإنذار المبكر". وكان الدرس الأساسى الذي يجب الخروج به من مفاجأة حرب يوم الغفران ولكن لم يحدث، هو أنه ليس هناك ما يضمن عدم وقوع أجهزة المخابرات، التي تعمل بفاعلية أكبر نسبيا على مستوى تقديرات الموقف الآنية والتى حققت إنجازات كبيرة في مجال جمع المعلومات بل ونجحت في تطوير

منظومة إنذار مبكر آنى ومتطور، (وهو ما تميزت به منظومة المخابرات العسكرية الإسرائيلية عشية حرب يوم الغفران) في مفاجآت أساسية أخرى.

ومن السابق لأوانه الحكم على تأثير نتائج الخطوات التي نفذت في أعقاب مفاجأة حرب يوم الغفران. ومع ذلك يمكن المخاطرة في هذا الشأن وتقديم بعض التخمينات العامة. فمن الممكن أن نفترض مثلا، أن المخابرات الإسرائيلية في مرحلة ما بعد يوم الغفران والتى شهدت عدة تغييرات وتحسينات (ومن بينها ما يمكن أن يندرج ضمن ما أسميناه بمجالات العمل الأساسية مثل تعيين ضابط كبير في منصب Devil's Advocate أي من يراقب عمل جهاز المخابرات) أصبحت تتسم ببعض الملامح التي ميزتها قبل الحرب : "تحقيق إنجازات عظيمة في مجال جمع المعلومات، وهى إنجازات يجب الإشارة إليها على مستوى تقديرات لموقف الآنية. ومع ذلك لا يجب أن نتوقع حدوث تحسينات ذات مغزى في مجال تقديرات الموقف الأساسية. ومما يستدل من مجال تقديرات الموقف الأساسية أنه حدثت مسيرة غير محسوبة على مستوى "دراسات في القضايا المثارة" والتى أدت الاستنتاجات التي خلصت إليها إلى تبنى اتجاه أكثر منهجية

لتحاشى حدوث مخاطر وذلك بالتركيز الزائد علـــى التـــهديدات الماثلة للعيان. وربما أدى هذا إلى أن المخابرات حصنت نفســها ضد أي نوع من المفاجآت الأساسية التي تعرضت لها في حـرب يوم الغفران. ولكن ربما كشفت أجهزة المخابرات نفســـها عــن حالة هلع أخرى (وهناك من يقولون بأنها حالة هلـــع عكســية) باتخاذها إجراءات أمنية استباقية وبصورة مبالغ فيها.

لقد تعرضت أجهزة المخابرات الإسرائيلية للمفاجأة مـــرة أخرى بعد أربع سنوات من حدوث المفاجأة الأساسية لحرب يـوم الغفران. وكانت هذه المفاجأة من نوع المفاجأة الأساسية، ونقصد بذلك زيارة السادات للقدس (فى نوفمبر ١٩٧٧)، وبداية ما سمى فيما بعد "مسيرة السلام" (كانت زيارة السادات بمثابـــة "مفاجـأة أساسية" بالنسبة لغالبية الإســـرائيليين بمـــا فـــي ذلــك أجــهزة المخابرات والزعامة السياسية خاصة وأن عددا محـــــدودا مــن الأشخاص كانوا مشاركين في سر هذه الزيارة بمـــا فـــي ذلــك رئيس الوزراء، وزير الخارجية وكبار مساعديهم (لم يطلع بـاقى الوزراء على سر الزيارة وكذلك لم تكن اللجنة الوزارية لشــئون الأمن تعرف بالأمر) وشاركوا أيضا في الاتصالات السرية مـــع دوائر مصرية سبقت السادات في المجئ إلى القـــدس. ويمكــن

القول في هذا الشأن بأن أجهزة المخابرات لم تتعرض لمفاجأة آنية). ولا يتمثل هذا الفشل في عدم تقديم المخابرات الإسرائيلية (أمان) لإنذار مبكر بشأن الزيارة وموعدها بل يتمثل أيضا في الكشف عن عدم الإدراك الأساسى للتغييرات الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية التي حدثت في مصر والتى حدثت قبل ذلك بفترة من الوقت وأدت إلى قيام الرئيس السادات بزيارة القدس.

ولا يقل فشل تقديرات الموقف المخابراتية " لمسيرة السلام " في الأهمية عن حالة الهلع التي حدثت في حرب يوم الغفران ورغم ذلك فالأمر ليس معروفا لدى الجمهور بهذه الصورة. والسبب الرئيسى لذلك هو أن حالة الهلع التي نجمت عن الحرب لم تكن مقرونة بأزمة قومية بل اقترنت، وبالذات، بمعنويات قومية عالية ولذلك وكما ورد على لسان توماس كون، لم تتفجر "مدارك ابيستمولوجية" لوجود الأزمة بل أن " المدارك السوسيولوجية " لوجود الأزمة لم يكن لها أي وجود تقريبا. وكان الدافع الشعبى والرسمى لاستخلاص الدروس المستفادة في أعقاب هذه المفاجأة، محدودا، إن كان موجودا بصورة عامة. وكما هو معروف فلم يتم في أعقاب هذه المفاجأة، أي فحص رسمي شامل لأسباب الفشل.

وكان يجب أن تفجر المفاجأة الأساسية "لمسـيرة السـلام" التفكير فيما إذا كان قد حدث تحسن جوهرى في نوعية تقديـرات الموقف التي تصدر عن أجهزة المخـابرات الإسـرائيلية علـى المستوى الأساسى وذلك في أعقاب التحسينات التي نفذت داخـل هذه الأجهزة. وهل لم يؤد فشل أجهزة المخـابرات فـي تقييـم الاستعداد المصرى لشن الحرب ضد إسرائيل في عام ١٩٧٣ لم يؤد إلى تحول سريع نحو التطرف المعاكس، أي الميل المـتزايد للقيام "بخطوة أمنية استباقية" خلال إعداد تقديرات موقف حـول المخاطر التي يمكن أن تبرز خلال الأحـداث ذاتـها أو علـى مستوى الخطوات التي يجب أن تتخذ؟.

وقد إدعى رئيس الأركان في ذلك الوقت الجنرال جـور قبل الزيارة ذاتها بأيام معدودة وبعد النشر عنها مـن أن الأمـر ليس بمثابة مسيرة سلام بل هي عملية تضليل استراتيجية تتطلب من جيش الدفاع أن يكون على أهبة الاستعداد لإحتمال انـدلاع الحرب. وإدعى رئيس أمان في ذلك الوقـت الجـنرال شـلومو جازيت في محاضرة علنية ألقاها في جامعة تل أبيب بعد أشـهر معدودة من زيارة السادات بأنه تم الانتهاء من بحث شامل نفـذ قبل الزيارة التي قام بها الرئيس المصرى حول موقف الشـعب

المصرى من النزاع وحول إمكانية تحقيق سلام مع إسرائيل[١٤].
وتوصل هذا البحث الذي شارك فيه مستشرقون إسرائيليون من خارج أجهزة المخابرات إلى استنتاج مفاده أنه لم يحدث أي تغيير في مواقف الشعب المصرى تجاه إسرائيل وأنه لم يحدث أي لين ذا مغزى في مواقف الشعب المصرى المعادية والصلبة تجاه إسرائيل أو في استعداداته للاستمرار في طريق الحرب. وذكر جازيت بأن زيارة السادات للقدس جاءت من قرار شخصى، وأن هذا الحدث لا يعكس استعدادا مصريا واسعا للغاية للسعى لتوقيع اتفاق سلام مع إسرائيل، كما أن السلام هو ثمرة لنزوة شخصية ولذلك فإن الاستمرار في مسيرة السلام سيكون مرهونا برغبة شخص واحد فقط (وزعت في نوفمبر ١٩٧٧ عدة نسخ من دراسة قامت بها أجهزة المخابرات الإسرائيلية تحت عنوان "السادات والنزاع - مواقف السادات تجاه النزاع الإسرائيلى العربى استنادا على تحليل تصريحاته العلنية خلال الفترة ما بين أكتوبر ٧٣ وأكتوبر ١٩٧٧". وقد انتهت الدراسة إلى .. "النقطة الحاسمة في موقفه واضحة : "إنه غير مستعد للاعتراف بشرعية وجود اسرائيل وهو غير مستعد لأن يقيم معها علاقات سلام مقبولة بل وهو غير مستعد للإعلان

عن أن مثل تلك العلاقات متوقع حدوثها بعد فترة زمنية قصيرة أو بعيدة").

هكذا كانت رؤية رئيس الأركان وأجهزة المخابرات الإسرائيلية لزيارة السادات ولمسيرة السلام وهي في طور التكوين. وإذا كان هذا هو أساس التغيير "الذى طرأ على تقدير الموقف الخاص بأمان، فمن الممكن أننا سنشاهد نموذجا يؤكد إمكانية أن تؤدى مفاجأة أساسية واحدة إلى زيادة احتمالات حدوث مفاجأة أساسية أخرى وليس فقط وكما قيل قبل ذلك، من أن الوقوع في مفاجأة أساسية واحدة لا يوفر الحصانة التي تمنع الوقوع في مفاجأة أساسية أخرى.

هل يمكن تحقيق تعددية بحثية عن طريق التعددية التنظيمية ؟

استهدفت التوصيات التي أصدرتها لجنة أجرانات على مستوى العمل المخابراتى والتى تتصل بتغييرات تنظيمية يجب القيام بها، ضمان وجود التعددية في تقديرات المواقف الخاصة بالمخابرات وعلى أختلاف أنواعها[١٥]. وهذه التوصيات تستحق الدراسة الخاصة. وقد شملت ما يلي :

أ- دعم إدارة الأبحاث في وزارة الخارجية، عن طريق تنظيمها كجهاز مستقل في إطار وزارة الخارجية. ونظرا لأن أحد أهداف هذه الإدارة يجب أن يشمل إعداد تقرير موقف مخابراتى - سياسى استراتيجى مستقل وبخاصة من خلال الاعتماد على المعلومات الخاصة المتوافرة لديها، فإنه يجب دعمها بمجموعة مناسبة من الأشخاص سواء من حيث الكيف أو من حيث الكم".

ب- يجب أن تقام داخل الموساد وحدة تقدير موقف لدراسة المعلومات التي يقوم الجهاز بجمعها.

ج- يجب القيام بتغييرات جوهرية وأساسية في بنية أمان (شعبة الاستخبارات) وداخل سلاح المخابرات ذاته وبالصورة التي تضمن أن تركز الدراسات وتقديرات الموقف على مجالات المخابرات العسكرية، الاستراتيجية، العملية والتكتيكية (بما في ذلك إعادة تنظيم "المخابرات الميدانية وتعديل مستوى تمثيلها داخل القيادة العامة) وبما يوفر التشجيع للآراء المختلفة والمتباينة بين العاملين في إدارة الأبحاث وعلى مستوى تقديرات الموقف الصادرة

عن أمان والتى توزع على الدوائر المختلفة. وكذلك توفير القوى البشرية المناسبة بما في ذلك عناصر مدنية للعمل في إدارة الأبحاث وذلك وفقا لسلم ترقى أمثل مع ضمان التنقلات الداخلية المناسبة داخل الإدارة وخارجها وبصورة تضمن توافر الرقابة المستمرة على تقديرات الموقف المخابراتية[١٦]. وليس في التوصيات التنظيمية التي قدمتها لجنة أجرانات أي جديد، بل هي بمثابة عودة شبه دقيقة لتوصيات لجنة "يادين -شيرف" التي شكلت قبل ذلك بعشر سنوات (١٩٦٣) بقرار من بن جوريون لدراسة البنية الخاصة بأجهزة المخابرات. وهناك شبه كبير بين توصيات لجنة يادين-شيرف وتوصيات لجنة أجرانات من جانب وبينها وبين توصيات لجان تحقيق أخرى عملت في فترات مختلفة في الولايات المتحدة كلجان تحقيق أمريكية تشكل بين الحين والآخر لدراسة تنظيم وأسلوب عمل أجهزة المخابرات الأمريكية. والعامل المشترك في جميع هذه اللجان هو أن التعددية في تقدير الموقف، توفر فرصة عدم الوقوع في تصورات خاطئة. كما أن هذه التعددية يمكن أن تتحقق عن طريق التعددية التنظيمية وتعتمد هذه

النظرية على افتراض عام يقول بأنه إذا توفرت التعددية التنظيمية فسيكون في الإمكان التغلب على الاتجاه نحو ترسيخ تصور واحد لم يتم اختباره ومتابعته كما يجب مع تحسين القدرة على التصدى لأى انحرافات في "تقدير الموقف" تكون ثمرة لتفكير جماعى[١٧] وأحياناً تكون ناجمة عن مصلحة تنظيمية. ويمكن عن طريق التعددية التنظيمية، منع حدوث الأخطاء الجماعية، وسيؤدى ذلك إلى بروز تحدى دائم يمنع سيطرة تصور جماعى أو تنظيمي واحد على تقدير الموقف القومى. وسيضمن وجود أجهزة مستقلة لتقدير الموقف وتنتمى إلى مؤسسات سلطوية مختلفة وتستند على قواعد معلومات مستقلة وتكون لديها مجالات اهتمامات ومصالح تنظيمية مختلفة، سيضمن التعددية في تقديرات الموقف[١٨].

ولم تحقق المحاولة الإسرائيلية لتحقيق تعددية في تقديرات الموقف عن طريق التعددية التنظيمية، نجاحاً حتى الآن. فبالإضافة إلى المخابرات العسكرية تقوم إدارة البحوث في وزارة الخارجية وكذلك إدارة البحوث في الموساد بتقديم أوراق تتضمن تقديرات موقف في قضايا تندرج ضمن تقديرات

الموقف القومية وفى قضايا الإنذار المبكر. ولكن تظل المخابرات العسكرية (أمان) وبصورة فعلية الجهاز البحثى الذي يتحمل وبقرار حكومي المسئولية عن تقديرات الموقف المخابراتية الرسمية وبذلك يمكن منع حدوث مفاجآت استراتيجية.

ويبرز من يدعى بأنه لا يجب استخلاص أي شئ من ذلك تجاه طبيعة التوصيات التي صدرت عن لجنة أجرانات والتى تتناول التنظيم والبنية الداخلية لأجهزة المخابرات الإسرائيلية، حيث أن تلك التوصيات لم تنفذ بكاملها بل نفذت أجزاء منها فقط. ولكن الفشل في تحقيق التعددية في تقديرات الموقف عن طريق التعددية التنظيمية، ليس بالأمر المميز لأجهزة المخابرات الإسرائيلية. فلقد شهدت أجهزة المخابرات الأمريكية، منذ الأربعينيات، تغييرات تنظيمية هامة استهدفت، من ضمن ما سعت إلى إنجازه تحقيق هذه التعددية. ويمكن اعتبار هذه المحاولات، محاولات فاشلة. وجاءت تأثيرات التغيرات التنظيمية لتشمل وبصورة عامة أهداف المشكلة التي تتصل بتقدير الموقف. ولم تؤد هذه التغييرات إلى تحسن جوهرى في تقدير الموقف المخابراتى على مستوى المخابرات الرسمية[١٩].

ويبدو أن مصير هذه التغييرات كان الفشل منذ البداية وبخاصة لأن الافتراض القائل بأن التعددية في تقدير الموقف يمكن أن تتحقق عن طريق التعددية التنظيمية، هو افتراض مفند من الأساس. ففى كل ما يتصل بمستوى "تقدير الموقف الأساسى" ظهر أن التصورات هي شئ مشترك للأمة كلها (ومن أمثلة ذلك ما يحدث في إسرائيل حيث هناك تصورات راسخة مثل القول بأن سوريا هي أكثر دول المجابهة تطرفا وعلى ذلك فهى آخر المرشحين للتوقيع على اتفاق سلام مع إسرائيل). وكلما ترسخت هذه التصورات وأحيطت باتفاق قومى شامل وأكثر قوة كلما كان من الصعب إيجاد اختلافات في النظر إليها بين الأجهزة المختلفة التي تحدد تقديرات الموقف المخابراتية. فالتمسك بمثل هذه التصورات الأساسية يؤدى بصورة عامة إلى اختفاء الخط الفاصل بين المخابرات العسكرية وبين قسم الأبحاث في الموساد من جانب وبين إدارة الأبحاث في وزارة الخارجية من جانب آخر.

ويمكن أن تنشأ التعددية في تقديرات الموقف عن طريق التعددية التنظيمية بصورة خاصة خلال إجراء مناقشات حول "تكلفة الفائدة" الخاصة بطبيعة التهديدات العسكرية وأشكال الرد

المرغوب فيها. ولكن التعددية في كل مـــا يتصـــل بالنظريـــات والمواقف القومية التي تسمو فوق مستوى المصلحة التنظيميـــة، قد تؤدى بالذات إلى دعم وتقوية الاتفاق بين تقديرات الموقـــف، لأن هذه التعددية تخلق الوهم القائل بـــأن النظريـــة أو الموقـــف المقبول من جانب بعض أجهزة البحوث "المستقلة" هي نظريـــة "حقيقية".

ويمكن أن نستخلص مـــن تجربـــة أجـــهزة المخـــابرات الأمريكية أن الخلافات في الرأى بين أجهزة تقديرات الموقـــف ووحدات المخابرات التابعة لأذرع القوات المسلحة والمخـــابرات الأمريكيـــة C.I.A والإدارات الخاصـــة بـــالبحوث فـــي وزارة الخارجية، لا تتناول القضايا الأساسية على المستوى الرســـمي. ومن أمثلة ذلك الاتهامات التي وجهت إلى وحدات المخابرت في القوات البرية وفى السلاح الجوى وفى البحرية الأمريكية بأنـــها تميل إلى المبالغة في عرض التهديدات السوفيتية في المجـــالات التي ترد ضمن مسئولياتها. والهدف من ذلك هو تبرير المطالبـــة بتخصيص ميزانيات ضخمة لتلك الأذرع التي ينتمـــون إليـــها. ولكن طالما يتصل الأمر بالنظريات القومية الأساسية التي تســـمو فوق المصلحة التنظيمية فلن تكون هناك اختلافات هامـــة بيـــن

تقديرات الموقف الخاصة بأجهزة المخابرات المختلفة[٢٠]. ولكن كل هذا لا يكفي. فالتعددية التنظيمية وفق نظرية العرض والطلب، تعني عمليا خلق "سوق مشترين"، أي "زيادة في عدد الأجهزة التي تعمل في مجال إنتاج تقديرات موقف مخابراتية في مقابل وجود مستهلك رئيسي واحد أو عدد محدود من مستهلكي المخابرات وهم "قادة الدولة". وفي مثل هذا الوضع بالذات فإن المستهلكين هم الذين يرسمون معايير "السوق" ومن هنا يتعاظم الميل إلى تلبية متطلبات من يصدر القرارات وبالصورة التي يفهمها. والقائد - من يصدر القرارات - يتلقى ما يدعم مواقفه من عدد من أجهزة المخابرات. وفي حالة حدوث خلافات في الرأي بين هذه الأجهزة ففي يدى القائد إمكانيا اختيار تقدير الموقف الذي يروق له. "وسوق المشترين" يزيد من التنافس بين منتجي المخابرات. ولكن هذه المنافسة موجهة لتحقيق أدق المعلومات التي تخدم احتياجات المستهلك وبالصورة التي يصفها بنفسه وتقلل من محاولة تغيير مواقف صاحب القرار. ولو اعتمد المستهلك في هذه الحالة على "بائع" وحيد جهاز مخابرات واحد فقط - لشعر جهاز المخابرات بحرية أكبر في الاعتراض على مواقف المستهلك. وبذلك تحقق التعددية

هدفا معاكسا لما اعتزمت تحقيقه. فالهدف من التعددية هو زيـادة رقعة الالتزام بخط رسمي واحد بينما تؤدى في واقع الأمر إلـى ترسيخ ما هو على النقيض من ذلك.

ومن المجالات التي ربما كان تمسكنا فيها بتصور قومـي خاطئ، وبدون أن يكشف ذلك عن ميكانيزم التعددية التنظيميـة، ما يتصل بنظرتنا إلى سوريا.

فقد اعتبرت سوريا أكثر أعداء إسرائيل تطرفا وشراسـة ونشاطا. وأعتبرت أيضا آخر الدول المرشحة للتوقيع على اتفـاق سلام مع إسرائيل. ويبدو، على الأقل، توافر عدة حقـائق كـان يجب أن تفجر علامات استفهام حول هذا التصور. وليس هنـاك أي شك في التطرف الأيديولوجى المعلن من جانب النظام البعثى في سوريا، ولكن هذا النظام أثبت، ولمرات عديدة قدرته علـى اتباع سياسة تتسم برجاحة العقل تجاه إسرائيل وعلـى الالـتزام بكبح جماح النفس ، المرونة طالما أن مصلحته تدعوه إلى تطبيق هذه السياسة (هذه السياسة هي التي مكنت الطرفيـن - سـوريا وإسرائيل - من تحاشى الدخول في حرب بينهما فـي السـاحة اللبنانية ومن تحقيق الاستقرار المستمر وعلى عدم تجـاوز رد

فعل عال في هذه الساحة الصاخبة والمتقلبة. وللمزيد مـــن هـــذا الشأن انظر : تسيفى لانير : "التدخل الإسرائيلى فــــي لبنـــان - إحدى السوابق للعبة مفتوحة مع سوريا" والصادر عـــن مركـــز الدراسات الاستراتيجية. الدراسة رقم ١٠ والصادرة عن جامعـــة تل أبيب ، سبتمبر ١٩٨٠). وقدمت حرب يوم الغفـــــران عـــدة أمثلة أخرى على شراسة الجندى السوري في الميـــــدان. ولكـــن يستدل من أقوال أسرى حرب آخرين أن الشراسة التـــي أبداهـــا المصريون خلال استجوابهم داخل معسكرات الاسرى لم تكـــــن تقل شدة بل وكانت منهجية بصورة أكبر. كما أن صفة "الخيانـــة" التي لصقت بالسوريين لم تصمد أمام اختبار الحقائق. وعلى أيـــة حال فإن تمسك السوريين بالاتفاقات الموقعة بينهم وبين إســـرائيل أفضل من تمسك المصريين بها.

إن التصور الإسرائيلى تجاه السوريين هو تصور راســـخ، واحتمالات إعادة دراسته بصورة موضوعيـــــة هـــي احتمـــالات ضئيلة للغاية، ولا ينبع ذلـــــك فقـــط مـــن الحـــاجز النفســـى - الأيديولوجى بل ينبع أيضا وبصورة لا تقل عن ذلـــــك، مـــن أن النظام السياسى في إسرائيل يخلو من أي عنصر سياسى مـــــهتم بإجراء مثل هذه الدراسة.

ويمكن العثور في الخريطة الحزبيــة الإســرائيلية علــى مؤيدين لاتفاق السلام مع مصر ومع الأردن ومع لبنان بل ومــع منظمة التحرير الفلسطينية. ولكن هناك موافقة صامتة بين حزب السلطة والحرب المعارض الرئيسى على عــدم التحــاور مــع السوريين (هذه الموافقة هي التي ساعدت على صدور " قـــانون الجولان " بتأييد غالبية أعضاء الائتــلاف والمعارضــة وبرقــم قياسى في السرعة). وقامت دوائر إسرائيلية بمحاولات تحـــاور رسمية أو غير رسمية مع كل الدول العربية المحيطة بإســـرائيل بما في ذلك منظمة تحرير فلسطين. ولكن لم يحدث ذلـــك مــع سوريا.

ومن الطبيعي أن يقوم كل حزب بجمع وعرض الشـــواهد لكى يقتنع ويقنع الآخرين بوجود شـــواهد علـــى أن "المرشـــح" الخاص به مستعد للتوصل إلى اتفاق مع إسرائيل. ولكن نظـــرا لافتقار إسرائيل إلى الزعيم الأوحد الذي يقف مثل هذا الموقـــف تجاه سوريا، فليس هناك من يقوم بجمع بل وتقديم نفس الشـــواهد القائمة التي يستدل منها أن التصور الإسرائيلى تجاه سوريا ليــس سليما بالضرورة.

إن التعددية التنظيمية لدى أجهزة المخابرات الإسرائيلية في فترة ما بعد حرب يوم الغفران، ليس فيها ما يضمن إعادة دراسة تصوراتنا تجاه سوريا، وهي تصورات تفتقر إلى توجهات لا تخضع لتأثيرات الاتفاق القومي العام. وفي مثل هذا الموضوع الهام، لا تتوافر فرصة كبيرة للعثور بين أجهزة المخابرات في إسرائيل على عنصر يرى بأنه من الواجب عليه أن يقوم بجمع الشواهد التي تشير إلى وجود احتمالات لدى السياسة الإسرائيلية لتقبل إسرائيل. وفي مقابل ذلك فإن كل دوائر المخابرات الإسرائيلية تبدي يقظة كبيرة لتقديم الإنذار المبكر قبل حدوث أي تهديدات خارجية. وعلى ذلك تظهر هذه الدوائر الحرص الشديد على جمع تفاصيل المعلومات التي تشير إلى وجود تطرف ونوايا معادية لإسرائيل في السياسة السورية... ومثل هذه الشواهد متوافرة بكثرة بطبيعة الأمر. إن "أمان" هو، بادئ ذي بدء، جهاز المخابرات الخاص بالجيش، وانطلاقا من ذلك فإن سوريا بالنسبة له هي العدو الرئيسي والنبوءة المرتقبة لاندلاع الحرب القادمة والتي يجب أن يقدم بشأنها الإنذار المبكر. وتقوم إدارة البحوث في وزارة الخارجية بإعداد دراسات عن سوريا وبخاصة على مستوى أعمالها

المتطرفة ضد إسرائيل في ساحة الأمم المتحدة. وسوريا ومعها منظمة تحرير فلسطين، هي العدو السياسي العنيد لإسرائيل والتي تقوم بنشاط مكثف ومستمر لزعزعة وضع إسرائيل بين الشعوب وبما يصل إلى طردها من الأمم المتحدة. والدور الرئيسى لحرب البحوث هذه، هو كشف مثل هذه الأنشطة في الوقت المناسب ولإحباطها عن طريق النشاط الدبلوماسي الإسرائيلي. والموساد، هو طليعة الصلات مع الزعامة المسيحية في لبنان ويشارك حتى الآن بتقديم الدعم الإسرائيلي المكثف للمسيحيين هناك. ويرى جزء من المسيحيين أن حل مشكلتهم مرهون بطرد السوريين الذين يعتبرونهم العنصر الرئيسي الذي يمنعهم من السيطرة على دوائر اليسار ويحول دون إعادة إقامة لبنان المسيحية. ويوجد بين المسيحيين من يتقبل الفكرة القائلة بأن السوريين سيكونون الطرف الذي سيضطرون في نهاية الأمر إلى التوصل إلى تسوية سياسية معه ولو على حساب روابطهم مع إسرائيل. ومن الصعب أن نتوقع أن تقوم إدارة البحوث في الموساد بالذات بلعب دور الطلائعي الذي يقوم بدراسة ملامح الاستعداد السوري للتوصل إلى اتفاق مع إسرائيل. ومع تغيب وجود الجهاز الذي يضع علامات استفهام

أمام نظرتنا إلى سوريا، فإن فرص حـــدوث ملامـــح لتصـــور يتعارض مع هذا التصور الرسمي تجاه ســـوريا، هـــي فـــرص ضئيلة. وعلى ذلك، قد لا نعلم وبصورة مطلقة، مـــدى صحـــة التصور الخاص بنا تجاه سوريا وما هي الفرصة الحقيقية أمـــام مسيرة التحاور السورى الإسرائيلى. وعرضنا لهذا النمـــوذج لا يعنى الإدعاء بأن التصور الإسرائيلى - وأيضا التصور الخـــاص بالمخابرات، تجاه السوريين خاطئ بالضرورة. وكل ما أقصـــد إليه هو أن أعطى أمثلة موجـــودة لقضايـــا لا تشـــكل التعدديـــة التنظيمية لأجهزة المخابرات، الضمان لإعادة دراسة تصـــورات قومية قائمة.

عملية إعادة دراسة الأمور داخل الجهاز السياسي

لقد خرج كل من الجيش والمخابرات بالدروس المســـتفادة، وإن كانت هذه خاصة بأوضاع آنية في جوهرها وعلـــى ذلـــك، فهي غير كافية. ولم تجد الحكومة والكنيست (وبخاصـــة لجنـــة الشئون الخارجية والأمن) رغم إصدارهما تعليمات إلى الجيـــش وإلى أجهزة المخابرات باستخلاص الدروس المستفادة، ما يدعـــو

إلى تطبيق ذلك عليهما (أى على الجيش والكنيست) رغم أن حرب يوم الغفران، وعلى غير أي حرب إسرائيلية عربية أخرى، كانت الحرب التي قامت دوائر سياسية ببلورة وتشكيل نتائجها. لقد كانت هذه، هي أول حرب - وربما بما يشكل سابقة - تقوم خلالها الولايات المتحدة بمنعنا من استكمال العمليات العسكرية وحسم الحرب في الجبهة المصرية عسكريا. لقد كانت هذه هي أول حرب كانت معدلات تآكل القوات المسلحة خلالها كبيرة للغاية حتى أن حكومة إسرائيل توصلت إلى استنتاج خلال اليوم الثالث للحرب مفاده "إنه بدون إمدادات طوارئ أمريكية من الأسلحة وقطع الغيار فلن تستطيع إسرائيل مواصلة الحرب (برز بعد الحرب من إدعى بأن تقدير الموقف هذا من جانب حكومة إسرائيل لم يكن له أي مبرر وأن أهمية شحنات الأسلحة والعتاد الأمريكى التي جرى نقلها عن طريق جسر جوى أمريكى إلى إسرائيل، كانت ذات أهمية هامشية بالنسبة لإسرائيل في ساحة القتال). لقد كانت هذه هي الحرب التي تحول خلالها السلاح الاقتصادى - سلاح البترول - إلى عنصر عظيم القوة في زعزعة مساحة التأييد الدولى لإسرائيل وفى زعزعة الدعم الأمريكي لإسرائيل، ولكن بقدر معين. وكشف خلال تلك

الحرب، التي تعاظمت خلالها أهمية المكونات السياسية لإدارة الحرب، عن نقاط ضعف خطيرة خلال مسيرة اتخاذ القرارات الأمنية على المستوى السياسي وعلى مستوى نوعية التفكير الأمني - السياسي لإسرائيل . وكان على الحكومة خلال حرب يوم الغفران أن تتخذ قرارات مصيرية وبسرعة وتحت ضغط الظروف. ولكن تبين، أنه لم تتوافر لجزء من وزراء الحكومة من الذين شاركوا في القرارات المصيرية الخاصة بإدارة الحرب داخل اللجنة الوزارية لشئون الأمن، المعرفة والفهم الضروريين لحسم مصير حرب خلال التصويت على هذا البديل أو ذاك. وتبين الآن، وبأثر رجعي، أن الوزراء الذين كانت لديهم خلفية أمنية والذين كان من المقرر أن يمثلوا إسرائيل داخل الحكومة لأنهم الطرف الذي لديه معرفة عسكرية محترفة، لم يظهروا قدرا كبيرا من فهم مغازى التطورات خلال حدوثها.

لقد كشفت حرب يوم الغفران، على مستوى التفكير السياسي - الأمني، وربما أكثر من أي مجال آخر، بما في ذلك علاقات القوى، التناقض القائم بين التطور العظيم الذي حدث لدى جزء من الدول العربية وبخاصة مصر وذلك منذ حرب الأيام الستة، وبين تحجر التفكير السياسي الأمني الإسرائيلي.

وفى هذا المجال تبرز المفاجأة الحقيقية لحرب يوم الغفران. وقد سما التفكير العربي في المجال الأمني إلى مرتبة أعلى من النظرة التي تعتبر القوة هي الخلاصة والتجسيد للأمن القومي. واتسم هذا التفكير ببلورة نظرية جاءت متفقة مع الضغوط السياسية، الاجتماعية والتكنولوجية التي واجهوها خلال الحرب وليس فقط الضغوط العسكرية وإذا كانت التوقعات أشارت إلى أن الزعامة السياسية في إسرائيل ستقوم بعد حدوث حالة الهلع القومية ببلورة فرضيات جديدة عن العدو وعن نفسها في نظرتها للعدو وعن منظومة العلاقات مع الولايات المتحدة - الحليف الوحيد لها - وبحيث تعكس منظومة الفرضيات تلك مدى التحول الذي حدث في هذه المجالات والتى بدأت بالحرب ذاتها - فإن هذا لم يتحقق ولم يجئ خلق المدارك الأبيستمولوجية حول جوهر الأزمة ومعه بلورة تصورات جديدة أكثر مواءمة للظروف الجديدة، لم يجئ على أيدى أجهزة المخابرات أو على أيدى الجهاز السلطوى والسياسى. فمجال اهتمامات هذه الأجهزة يتركز في إعطاء ردود عاجلة للأمور الآنية، ولكنها لم تظهر قدرة على السمو فوق تلك الأعباء، حتى بعد أن تركزت المشكلة القومية في أساسها في مجالات إعادة بلورة النظريات والمواقف الأساسية.

وإذا صدق الأديب عاموس عوز في مقولته "لقد توقفت القافلة عن المسير وعندئذ فقدت طريقها وقوتها وأصيبت بالوهن وحيث سيجئ الأعمى ليقود البصير"، فقد حدث بعد عشر سنوات من حدوث الهلع الأساسى في حرب يوم الغفران أن ظهرت مدارك سوسيولوجية أعمق من مجرد القول بأن "القافلة فقدت طريقها". ولكن يبدو أن النخبة الروحية لإسرائيل لازالت تفتقر إلى الإدراك العميق للأحداث وإلى القدرة على التأثير على الخطوات السياسية والاجتماعية التي تحدث في إسرائيل.

ويبدو، في هذه الأثناء، أن مسيرة بلورة المدارك القومية الجديدة في أعقاب الهلع الأساسي الذي حدث، هي في حالة تخبط وتقود إلى حالة من "العدمية الاجتماعية"، وهناك من يقول بأنها تقود إلى عدمية أخلاقية. ويرى الكثيرون بأن هذه هي مسيرة فقدان التفاؤل القومى في قدراتنا المبدئية على حل مشاكلنا. وتفجرت حالة اهتزاز منهجية للإيمان الأساسى، ليس فيما يتصل بعدالة المشروع القومى بل أيضا في فرص نجاحه. ويرى كثيرون بإن المشاعر الدينية الغامضة أو الحساسية والهروب إلى الوراء صوب الطائفية، هي أمور تشكل "حلا" لهذه الضائقة. ويستجيب سياسيون من جميع الأحزاب لتلك

الموجات ويتجهون إلى دقائق المشاعر الدينية والطائفية لناخبيهم وبذلك يقدمون لها المزيد من قوة الاندفاع إلى الأمام والذى يحولها إلى قوة دافعة أساسية لصراعات القوى. وبدلا من اللجوء إلى الفطنة يجئ اللجوء إلى المشاعر والأحاسيس الذي يجرى نقلها من المجال السياسى إلى أهداب حياتنا الروحية.

هل سيكون كل ذلك مجرد مراحل محتملة الحدوث لنفس المسيرة المؤلمة القائمة على "إعادة دراسة الأمور" في أعقاب حدوث الهلع القومى؟. أم هل حكم على المجتمع الإسرائيلي أن يجتاز كل هذه المسيرة بكاملها في طريقة إلى خلق مدارك قومية جديدة ؟.

هوامش الفصل الثالث

(١) ت.س. كون : "بنية الثورات العلمية"، إصـــدار المشـــاريع الجامعية للإصدار والنشر تل أبيب ١٩٧٧.

(٢) انظر :

- B.Turner, "Research Note. A Comment on the Nature of Information in Channels of Observation," Cybernetica (1977), vol.20, no.1, pp. 39-42.
- _____, "The Development of Disasters – A Sequence Model for Analysis of Disasters," The Sociological Review, Vol. 24, No4, p.758.
- _____, "The Organizational and Interorganizational Development of Disaster," Administrative Science Quarterly, vol.21, no.3, (Sept., 1976), pp.378-397

(٣) استند "ترنر" في تفسيراته تلك على كتاب فيلنسكى :

H.L.Wilensky, Organizational Intelligence : Knowledge and Policy in Government and Industry, Basic Booes (New York, 1967).

وتعكس رؤية فيلنسكى لوظيفة المخابرت، النظريات الشكلية لـدور المخابرات والتى سنتحدث عنها بالتفصيل في الجزء الثانى من هذا الكتـاب. وقد بذل "فرانك ستيل" محاولة مثيرة لتفسير وشرح المفاجأة التي حدثت فـي

حرب يوم الغفران استنادا على الموديل الخاص بترنر. وفى هـــذا الشـــأن أنظر:

F.J. Stech, Political and Military Intention Estimation : A texonometric Analysis. Final Report, Mettech Inc. (Bethesda, Maryland 1979), pp. 171-211.

(٤) عاموس عوز "تحت الضوء الأزرق القوى" سفريات بوعاليم - تل أبيـــب ١٩٧٩ ص ١٤-١٥.

(٥) أهرون زئيفى : "الخداع المصري في خطة حرب يوم الغفران" : رســـالة دكتوراه قدمت إلى جامعة تل أبيب في سبتمبر ١٩٨٠.

(٦) الشاذلى : الوطن العربي. لبنان ١٩٧٩/١/١١.

(٧) سارع هؤلاء النفر من المفكرين إلى توضيح المغزى الواضح لظاهرة "حالـة الهلع" التي حدثت في حرب يوم الغفران بعد أيام معـــدودة مـــن انتـــهاء الحرب. وانظر على سبيل المثال : "يعقوب تلمون : حساب مع النفـــس "هارتس ١٩٧٣/١١/٣٠.

(٨) بتسلال بركوخفا : "حروب الحشمونيم - أيام يهودا المكابى" إصـدار دار نشر بن تسيفى بالاشتراك مع وزارة الدفاع. القدس ١٩٨١.

(٩) يهوشفاط هاركابى : "تحكم الواقع : الدروس القومية والتثقيفية المستفادة من سفر إرميا ومن الثورة الكبرى". إصدار فان لير - القدس ١٩٨١.

(١٠) نكديمون روجل :"تل حى - جبهة بدون مؤخرة" تل أبيب ١٩٧٩.

(١١) شولاميت لاسكوف : "رحال البيلو" - المكتبـــة الصهيونيـــة - معـــهد الدراسات الصهيونية القدس ١٩٧٩.

(١٢) أنيتا شابيرا : "برل كتسلنسون" سيرة ذاتية. إصدار عام عوفيد - تل أبيب ١٩٨٠.

(١٣) منقول عن الجنرال احتياط يتسحاق رابين في حوار مع مؤلف الكتاب جرى في ١٩٨٠/٨/٥.

(١٤) انظر يديعوت أحرونوت ١٩٧٨/١١/٢.

(١٥) تقرير لجنة أجرانات ص ٣٣.

(١٦) تقرير لجنة أجرانات ص ٣٢-٣٣.

(١٧) "التفكير الجماعي" : نمط التفكير لدى أشخاص يشاركون بعمق في حياة جماعية مبلورة، حيث تسيطر رغبة المجموعة في الاتحاد في الرأى على الميل إلى إعادة دراسة أساليب العمل البديلة وبصورة واقعية ".

(١٨) عن المناقشات الشاملة حول مزايا وعيوب "التعددية" فيما يتصل بمفاجأة حرب يوم الغفران انظر :

Janis Victims of Groupthink, Hough on Mifflin (Boston, 1972), p.9.

وترى وجهة نظر " شلايم " التي تتعارض مع وجهة نظرى بأنه يجب التوصية بتبني " التعددية التنظيمية ".

(19) R.K.Betts, Analysis, War and Decision, pp. 67-73; 85-87.

(20) S. Chan, "The Intelligence of Stupidity : Understanding Failures in Strategic Warnings, The American Political Science Review, Vol. 73, No.1, March 1979, pp. 171-180.

المحتويات

صفحة

من إصدارات المركز :

* ظاهرة النبوة الإسرائيلية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* جامع التعريب	تحقيق وشرح نصوص أونال قره أرسلان
* دليل وثائق الجنيزا	لجنة الجنيزا بالمركز
* الحساب القومى	ترجمة أ.د / محمد محمود أبو غدير
* الشخصية الإسرائيلية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* الصهيونية الدينية	ترجمة أ.د / محمد محمود أبو غدير
* الحركة الصهيونية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* المجتمع الإسرائيلى	ترجمة د. / محمد أحمد صالح
* اسلام حقائق اور الزامات	ترجمة د. / يوسف عامر
* أدب المهجر الشرقى	تأليف د. / محمد عبد الرحمن الربيّع
* الكلام والفكر والشىء	ترجمة د. / محمد صالح الضالع
* قاموس المختصرات العبرية	إعداد د. / شعبان محمد سلام
* الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية	نقله إلى العربية د./ أحمد محمود هويدى
* حكايات أيسوبوس	ترجمة ودراسة د./ صلاح محجوب
* البعد الدينى للصراع العربى الإسرائيلى	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* اتجاهات التراجم والتفاسير القرآنية فى اللغة الأردية	تأليف أ.د / سمير عبد الحميد إبراهيم
* الجنيزا والمعابد اليهودية فى مصر	تأليف أ.د/محمد خليفة حسن والأستاذ النبوى سراج
* سياسة إسرائيل فى طرد السكان العرب	ترجمة وتعليق د. محمد أحمد صالح
* الرموز الدينية فى اليهودية	تأليف أ.د/ رشاد عبد الله الشامى
* الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى الحاضر والمستقبل	تأليف أ.د/ أحمد فؤاد متولى ود. هويدا محمد فهمى

* المشكلة الكردية — ترجمة وتعليق / أ.د محمد علاء الدين منصور
* المسرح الإيرانى — تأليف / د. عبد الوهاب علوب .
* الأدب الفارسى عند يهود إيران — ترجمة / أ.د. محمد نور الدين عبد المنعم
* الصراع الدينى العلمانى داخل الجيش الإسرائيلى — تأليف أ.د/ محمد محمود أبو غدير
* الأقليات المسلمة والصراعات فى الكومنولث — تأليف د. / هويدا محمد فهمى
* الشخصية الفلسطينية فى القصة العبرية القصيرة — تأليف د./ محمود على صميده
* مستوطنة معالية أدوميم وانتهاك حقوق الإنسان الفلسطينى — ترجمة د. / عبد الوهاب محمود وهب الله
* يهود مصر «دراسة فى الموقف السياسى» — تأليف د. / محمود عبد الظاهر
* فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى — تأليف د. /محمد جلاء إدريس
* التركمان بين الماضى والحاضر — ترجمة وتعليق أ . د / عبد العزيز محمد عوض الله
* اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية — تأليف أ.د./ عطية القوصى
* التأثيرات الإسلامية فى العبادة اليهودية — تأليف/نفتالى فيدر ترجمة د. محمد سالم الجرح
* اليهودية — تأليف أ.د/ محمد بحر عبد المجيد
* المحاضرة والمذاكرة — ترجمة أ.د/ عبد الرازق أحمد قنديل

* رسالة المشرق « مجلة دورية محكمة »

يسر مركز الدراسات الشرقية أن يقدم للقارىء الكريم هذه الترجمة العربية لكتاب مهم عن حرب أكتوبر صدر باللغة العبرية وأثار ضجة كبيرة فى المجتمع الإسرائيلى .

وقد لاحظ مؤلف الكتاب أن التفسيرات الإسرائيلية التى أعطيت لتبرير هزيمة الجيش الإسرائيلى فى حرب ١٩٧٣م تفسيرات ضعيفة لا تتناسب أبداً مع هذا الحدث الهائل فى تاريخ العسكرية الإسرائيلية ، ولم تفد فى الكشف عن جوانب التقصير التنظيمية والمخابراتية من جانب الجيش الإسرائيلى ، ولا فى تحليل عنصر المفاجأة وكيفية حدوثها . ويحاول المؤلف أن يربط الهزيمة والمفاجأة بأحداث وتطورات عميقة حدثت للمجتمع الإسرائيلى على المستويات السياسية والأيديولوجية والأخلاقية .

وقد حدد المؤلف هدفه فى إعادة اختبار المسلمات التى أحطات بالمفاجأة التى وقعت فى الحرب ومحاولة ظاهرة المفاجأة الاستراتيجية وأسباب وقوعها وفشل المخابرات الرسمية فى كشفها .

